الباب العشرون

الانحلال الخلقى

١٣٠٠ — ١٥٣٤

الفصل الأول

منابع الفساد الخلقى وأشكاله

ليس ثمة ميدان يمكن أن يتعرض فيه المؤرخ لتأثير أهوائه وميوله فيضل ويصدر أحكاماً خاطئة ، كالميدان الذى يطرقه حين يريد التحقق من المستوى الأخلاقى لعصر من العصور — اللهم إلا إذا كان هذا الميدان هو ميدان البحث فى أسباب ضعف العقيدة ، الدينية ، وهو ميدان وثيق الصلة بميدان الأخلاق ، فى كلتا الحالين يكون أكثر ما يسترعى نظره هو الاستثناء غير المألوف الذى يؤثر فى النفس بمظهره فيصرف الإنسان عن الأحوال المألوفة التى لا تسجلها صفحات التاريخ . وإذا ما أقبل على المشكلة التى أمامه ولديه فكرة يريد أن يثبتها كالفكرة القائلة إن التشكك فى أمور الدين يؤدى إلى انحلال الأخلاق — نقول إنه إذا أقبل على المشكلة بهذه الفكرة زادت الحقائق انطماساً فيعجز عن تبين الحقيقة كاملة . هذا إلى أن الحادثات المسجلة قد تفسر بالنقيضين ، ويكاد يستطيع قارئها أن يثبت بها أى شىء حسب ما يختاره من تلك الحادثات مدفوعاً إلى ذلك بميله وهواه . فنى وسعه مثلا أن يوجه اهتمامه إلى مؤلفات أريتينو Aretino وسير تشيلينى ، Cellini الذاتية ، ورسائل مكيفلى وڤتورى ليشتم منها رائحة الانحلال ، كما أن

فى مقدوره أن ينقل من رسائل إزبلا وبيتريس دست ، ورسائل إلزبتا جندساجا وألسندرا استرتسى ما يصور به الحنان الأخوى والحياة البيتية المثالية . ولهذا ينبغى لقارئ التاريخ أن يكون على حذر .

وكان ثمة عوامل كثيرة سببت ذلك الانحلال الخلقى الذى صاحب ما كان فى النهضة من رقى فكرى عظيم . وأكبر الظن أن العامل الأساسى فى هذا الإنحلال هو زيادة الثراء الناتج من موقع إيطاليا الهام فى ملتقى الطرق التجارية بين أوربا الغربية وبلاد الشرق ، ومن تدفق العشور وغيرها من القروض التى كانت ترد إلى رومة من ألف مجتمع مسيحى . وزاد انتشار الإثم بازدياد المال الذى تتطلبه نفقاته ، وأضعف انتشار الثراء اتخاذ الزهد مثلا أعلى للحياة : فقـــد أصبح النساء والرجال يشمئزون من المبادئ الأخلاقية التى قامت على الفقر والخوف ، والتى أضحت الآن تتعارض مع غرائزهم ووفرة مالهم . وأخذوا يستمعون بعطف متزايد إلى آراء أبيقور القائلة إن على الإنسان أن يستمتع بالحياة ، وإن كل الملذات يجب أن تعد بريئة حتى يثبت جُرمها : وغلبت مفاتن النساء أوامر الدين ونواهيه .

وربما كان العامل الثانى الذى يلى الثراء فى إفساد الأخلاق هو ما كان فى ذلك العصر من تقاتل سياسى . ذلك أن تطاحن الأحزاب والشيع المتعادية ، وكثرة الحروب ، وتدفق مرتزقة الجنود الأجانب ، وما حدث بعد ذلك من غزو الجيوش الأجنبية أرض إيطاليا ، وهى جيوش لم تكن تراعى فى تلك الأرض أي قيد من القيود الخلقية ، واضطراب أحوال الزراعة والتجارة بسبب ويلات الحرب وتخريبها ، وقضاء الحكام المستبدين على الحرية واستبدالهم القوة الغاشمة بالسلم والقانون : كل هذه الظروف أشاعت الاضطراب فى حياة إيطاليا وحطمت العادات التى كان الأهلون يعتزون بها ويحافظون عليها ، وهى فى العادة الحارس الأمين على الأخلاق . ووجد الناس أنفسهم يضربون على غير هدى فى بحر عجاج من العنف والجبروت ،

بدا لهم فيه أن الدولة والكنيسة كلتيهما عاجزتان عن حمايتهم فتولوا هم أنفسهم تلك الحماية بأحسن ما يستطيعون ، بالسلاح وبالخداع ؛ حتى أصبح الخروج على القانون هو السنة المتبعة والشريعة المقررة . وانغمس الحكام الطغاة فى الملذات جميعها بعد أن وجدوا أنفسهم فوق القانون يحيون حياة قصيرة ولكنها حياة مثيرة ، وحذت حذوهم أقلية الأهلين ذات الثراء .

وإذا شئنا أن نقدر أثر التحلل من الدين فى تحلل بنى الإنسان الفطرى من القيود الخلقية ، وجب علينا أن نبدأ بالتفرقة بين تشكك القلة المتعلمة ، وتقوى الكثرة التى تعض على تقواها بالنواجذ . إن الاستنارة على الدوام من مزايا الأقليات ، والتحرر من صفات الأفراد ، لأن العقول لا تتحرر جماعات . . . فقد يحتج عدد قليل من المتشككة على المخلفات الزائفة ، والمعجزات المزورة ، وصكوك الغفران التى تعرض تعهدا بالأداء الآجل نظير ثمن عاجل ؛ ولكن جمهرة الشعب تقبل هذه كلها فى رهبة وخشوع وأمل . وقد حدث فى عام ١٤٦٢ أن ذهب البابا العالم بيوس الثانى وجماعة من الكرادلة إلى ملفى ليستقبلوا رأس الرسول أندرو المحمول من بلاد اليونان ، وألقى الكردنال العالم بساريون Bessarion خطبة رهيبة حين وضع الرأس الموهوم الثمين فى كنيسة القديس بطرس . وكان الشعب يحج إلى لوريتو وأسيسى ، ويهرع إلى رومة فى سنى الأعياد ، ويطوف بمواضع الصليب من كنيسة إلى كنيسة ، ويصعد وأفراده ركع على الدرج المقدسة Seale Santa التى قيل لهم إنها هى الدرج التى صعد عليها المسيح إلى محكمة بيلاطس . وقد يسخر الأقوياء من هذا كله وهم أصحاء ، ولكن قلما كان يوجد إيطالى فى عصر النهضة لا يطلب القربان المقدس وهو على فراش الموت . فها هو ذا ڤيتيلتسو ڤيتيلى Yitelozze Yitelli الزعيم المغامر المستأجر الذى حارب الإسكندر السادس ، وسيزارى بورچيا يتوسل إلى رسول أن يذهب إلى رومة ليسأل البابا أن يغفر له قبل أن يشد جلاد سيزارى

الحبل حول عنقه ؛ وكانت النساء على الأخص يعبدن مريم ؛ ولم تكد قرية من القرى تخلو من صورة لها تصنع المعجزات ؛ وأضحت المسبحة وقتئذ (ولعل ذلك كان فى عام ١٥٢٤) الأداة المحببة للتسبيح والصلاة . وكان فى كل بيت محترم صليب ؛ وصورة مقدسة أو صورتان ، وأمام الصورة أو الصورتين فى كثير من البيوت مصباح يظل موقداً على الدوام . وكانت ميادين القرى وشوارع المدن تزدان أحياناً بتمثال للمسيح أو العذراء موضوع فى صندوق خاص أو كوة فى جدار . وكانت أعياد التقويم الدينى يحتفل بها فى أبهة وفخامة تخفف عن عامة الشعب كدحهم وتدخل السرور على نفوسهم ، وكان تتويج البابا كل عقد من السنين أو نحوه تعرض فيه المواكب والألعاب ، تذكر عارفى التاريخ القديم بما كان يجرى فى رومة القديمة . ولم يكن قط دين من الأديان أجمل مناظر من الدين المسيحى حين أقام فنانو النهضة ونحتوا أضرحة ، وصوروا أبطال هذا الدين وقصصه ، وحين اجتمعت المسرحيات والموسيقى ، والشعر ، والبخور فى عبادة الله ، وازدانت العبادة بما كان فيها من ألوان رائعة ؛ وروائح ذكية ، ومناظر فخمة .

ولكن هذا لم يكن إلا جانباً واحداً من جوانب المنظر فيه من الاختلاف والتناقض ما لا يليق معه وصفه بإيجاز . لقـــد كان كثير من كنائس المدن يخلو نسبياً من المصلين ، كما هى حالها فى هذه الأيام[1] . أما فى الريف فلنستمع إلى ما يقوله أنطونيو كبير أساقفة فلورنس فى وصف فلاحى أسقفيته حوالى عام ١٤٣٠ :

« وفى الكنائس نفسها كانوا أحياناً يرقصون ، ويقفزون ، ويغنون مع النساء . وفى أيام الأعياد لم يكونوا يقضون فى الصلاة أو فى سماع القداس إلا وقتاً جد قصير ؛ أما معظم الوقت فيقضونه فى الألعاب ؛ أو فى الحانات ، أو فى النزاع عند أبواب الكنائس . وهم يجدفون فى حق الله وأوليائه الصالحين ، أو ينطقون بأقوال مثيرة أقل من هذه قبحاً . تنطق ألسنتهم

بالكذب والحنث بالعهود وقول الزور ؛ ولا يؤنبهم ضميرهم على الفسق والفجور وما هو أسوأ من هذا وذاك . وما أكثر من لا يعترفون منهم بذنوبهم ولو مرة واحدة فى العام . وما أقل من يتناولون القربان المقدس . . . ولا يكادون يفعلون شيئاً يربون به أبناءهم كما يفعل الصالحون المؤمنون . ويستخدمون الرقى والتعاويذ لأنفسهم وحيوانهم ، ولكنهم لا يفكرون أبداً فى الله ولا فى سلامة أرواحهم . . . . أما قساوسة الأبرشيات فلا يعنى منهم أحد بالقطيع الذى يرعونه ، بل كل ما يعنون به هو أصواف ذلك القطيع وألبانه ، فلا يهدونه بالمواعظ العامة والاعترافات أو بالتحذير الفردى ؛ بل يرتكبون نفس الخطايا التى يرتكبها من يرعونهم ، ويسيرون سيرتهم الفاسدة(٢) » .

ومن حقنا أن نستدل من حياة رجال أمثال بمبونتسى ومكيفلى ، ومن موتهم الطبيعى ، على أن شطراً كبيراً من الطبقات المتعلمة فى إيطاليا عام ١٥٠٠ قد فقد إيمانه بالمسيحية الكاثوليكية ؛ ولنا أن نفترض ، فى حذر أكثر من هذا ، أن الدين حتى بين الطبقات غير المتعلمة ، قد فقد بعض ما كان له من سلطان على الحياة الأخلاقية . وكانت نسبة متزايدة من السكان قد نبذت العقيدة القائلة بأن القانون الأخلاقى موحى به من عند الله . وما كاد يبدو للناس أن الوصايا العشر من وضع البشر ، وما كادت تجرد مما فيها من نعيم فى الجنة وعذاب فى النار ، حتى فقد ذلك القانون الأخلاقى ما كان له من رهبة وقوة ، فلم يعبأ أحد بالمحرمات ، وحل محلها قانون جر المغانم وانتهاب اللذات ؛ وضعف شعور الناس بالخطيئة ، والرهبة من الجريمة ؛ وتحرر ضمير الناس من القيود أو كاد ، وأخذ كل إنسان يفعل ما يبدو له ميسراً ولو لم يكن مما اعتاد الناس أن يروه حقاً . ولم يعد الناس يرغبون فى أن يكونوا صالحين ، بل كل ما يريدونه أن يكونوا أقوياء . ومارس كثيرون من الناس ، قبل مكيفلى بزمن طويل ، امتيازات القوة ، والغش والخداع — أى المبدأ القائل

بأن الغاية تبرر الوسيلة — التى يجيزها ذلك السياسى لحكام الدول . ولعل قانونه الأخلاقى لم يكن إلا صورة تمثلت له بعد أن شهد ما حوله من أخلاق وعادات . وقد عزا بلاتينا Platina لپيوس الثانى قوله إنه « حتى إذا لم يكن الدين المسيحى مؤيداً بالمعجزات ، فإن من الواجب مع ذلك أن يتقبل لما فيه من حث على الأخلاق الكريمة »(٣) . ولكن الناس لم يكونوا يتبعون هذه الفلسفة فى تفكيرهم ؛ بل كل ما كانوا يقولونه : إذا لم تكن ثمة نار ولا جنة ، فإن من واجبنا أن نمتع أنفسنا على ظهر الأرض ، ونترك العنان لشهواتنا ، دون أن نخشى عقابا بعد الموت . ولم يكن شىء يستطيع أن يحل محل العقوبات السماوية الضائعة إلا رأى عام قوى مفكر ؛ ولكن رجال الدين ، والكتاب الإنسانيين ، ورجال الجامعات لم يرقوا إلى المستوى الذى يستطيعون معه أداء هذا الواجب .

ذلك أن الكتاب الإنسانيين لم يكونوا أقل فساداً من رجال الدين الذين يوجهون هم لهم سهام النقد . نعم إنه كان من بينهم قلة شاذة من العلماء النابهين الذين يرون الاحتشام والوقار مما يتفق مع التحرر العقلى — أمثال أمبروجيو ترافيرسارى Ambrogio Traversari ، وڤيتوريو دا فيلترى Vitoiro da Feltre ومرسليو ڤيتشينو Mersilio Vicino ، وألدس مانوتيوس Aldus Manutius . . . . ولكن أقلية كبيرة من الرجال الذين بعثوا الآداب اليونانية والرومانية كانت تعيش كما يعيش الوثنيون الذين لم يسمعوا قط شيئاً عن المسيحية . وكان تنقل أفرادها سبباً فى اقتلاعهم من كل بيئة وجدوا فيها ؛ فقد كانوا ينتقلون من مدينة إلى مدينة ، يطلبون فى كل منها المجد أو المال ، ولا يستقرون فى واحدة منها . وكانوا مولعين بالمال ولع المرابى أو زوجته ، مزهوين بعبقريتهم ، ومكاسبهم ، وملامحهم ، وثيابهم ؛ غلاظاً وقحين فى ألفاظهم ، غير كريمين حقيرين فى أحاديثهم ، غير أوفياء فى صداقتهم ، متقلبين فى حبهم ، وهاهو ذا أريستو ، كما قلنا من قبل ، لم يجرؤ على أن

يعهد بابنه إلى معلم من الكتاب الإنسانيين خشية أن تصيبه عدوى المعلم الخلقية . وأكبر الظن أنه لم ير من الضرورى أن يحرم على ولده قراءة قصة أورلندو فيوريوسو Orlando Furioso التى كانت تتخللها بعض العبارات الوقحة الحلوة النغمة . وقد كشف ڤلا ، وبجيو وبيكاديلى Becadelli ، وفيليفو بإيجاز بليغ فى حيائهم المستهترة عن إحدى المسائل الأساسية فى علم الأخلاق وفى الحضارة بوجه عام : ونعنى بها « هل ينبغى أن يكون القانون الأخلاقى ، إذا أريد أن يكون ذا أثر فى النفوس ، مؤيداً من قوة غير قوة بنى الإنسان — وهل لابد لأن يكون له ذلك الأثر أن يؤمن الإنسان بحياة غير هذه الحياة الدنيا أو يعتقد أن هذا القانون الأخلاقى منزل من عند الله ؟

الفصل الثانى

أخلاق رجال الدين

لقد كان يسع الكنيسة أن تحتفظ بحقوقها القدسية المستمدة من الكتب المقدسة العبرية والتقاليد المسيحية لو أن رجالها تمسكوا بأهداب الفضيلة والورع . ولكن كثرتهم الغالبة ارتضت ما فى أخلاق زمانها من شر وخير ، وكانوا هم أنفسهم مرآة تنعكس عليها ما فى سيرة غير رجال الدين من أضداد . فقد كان قس الأبرشية خادماً ساذجاً ، لم يؤت فى العادة إلا قسطاً ضئيلا من التعليم ، ولكنه غالباً ما يعيش معيشة يقتدى بها[٤] (وإن خالفنا فى هذا رأى الراهب الصالح أنطونينو) ، لا يعبأ به رجال الفكر ، ولكن يرحب به الشعب . وكان بين الأساقفة ورؤساء الأديرة بعض من يحيون حياة منعمة ، ولكن كان منهم كثيرون من الرجال الصالحين ، ولعل نصف مجمع الكرادلة كانوا يسلكون مسلك أتقياء المسيحيين المتدينين الذى يخزى مسلك زملائهم الدنيوى المرح[٥] .

وانتشرت فى جميع أنحاء إيطاليا المستشفيات ، وملاجئ اليتامى ، والمدارس ، وبيوت الصدقات ، ومكاتب القرض وغيرها من المؤسسات الخيرية يديرها رجال الدين . واشتهر الرهبان البندكتيون ، والفرنسيس المتشددون ، والكرثوزيون بمستوى حياتهم الخلقى الرفيع إذا قيس إلى أخلاق أهل زمنهم . وواجه المبشرون مئات الأخطار وهم يعملون لنشر الدين فى أراضى « الكفار » وبين الوثنيين المقيمين فى العالم المسيحى . واختفى المتصوفة عن أعين الناس وابتعدوا مما كان فى زمانهم من عنف ، وأخذوا يعملون للاتصال القريب بالخالق جل وعلا .

وكان بين هذا التقى والورع كثير من التراخى فى الأخلاق بين رجال

الدين ، نستطيع أن نثبته بما نضربه من مئات الأمثال . فهاهو ذا پترارك نفسه الذى بقى مخلصاً لدين المسيح إلى آخر أيام حياته ، والذى صور ما فى دير الكرثوزيين ، الذى كان يعيش فيه أخوه ، من نظام وتقى فى صورة طيبة مستحبة ، ها هو ذا يندد أكثر من مرة بأخلاق رجال الدين المقيمين فى أڤنيون . وإن الحياة الخليعة التى كان يحياها رجال الدين الإيطاليون ، والتى نقرأ عنها فى روايات بوكاتشيو المكتوبة فى القرن الرابع عشر إلى روايات فلتشيو فى القرن الخامس عشر ، إلى روايات بنـــديتلو فى القرن السادس عشر ، إن هذه الحياة الخليعة موضوع يتكرر وصفه فى الأدب الإيطالى فبوكاتشيو يتحدث عما فى حياة رجال الدين من دعارة وقذارة ومن انغماس فى الملذات طبيعية كانت أو غير طبيعية(٦) . ووصف ماستشيو الرهبان والإخوان بأنهم « خدم الشيطان » . منغمسون فى الفسق واللواط ، والشره ، وبيع الوظائف الدينية ، والخروج على الدين ، ويقر بأنه وجد رجال الجيش أرقى خلقاً من رجال الدين »(٧) .

وهاهو ذا أريتينو الذى لم يتورع عن أية قذارة يسخر من الطابعين بقوله إن أخطاءهم لا تقل عن خطايا رجال الدين ؛ ويزيد على ذلك قوله : « والحق أنه لأسهل على الإنسان أن يعثر على رومة مستفيقة عفيفة من أن يعثر على كتاب صحيح »(٨) وديكا پجيو Pogglo يفرغ كل ما عرفه من ألفاظ السباب فى التشنيع على فساد أخلاق الرهبان والقسيسين ، ونفاقهم ، وشرههم ، وجهلهم ، وغطرستهم(٩) . وبقص فولينجو Folengo فى كتاب أرلنديتو Oriandino هذه القصة نفسها ؛ ويبدو أن الراهبات ، ملائكة الرحمة فى هذه الأيام ؛ كان لهن نصيب ، فى هذا المرح ، أو أنهن كن مرحات رشيقات فى البندقية بنوع خاص حيث كانت أديرة الرجال والنساء متقاربة قرباً يسمح لمن فيها بالاشتراك من حين إلى حين فى فراش واحد : وتحتوى سجلات الأديرة على عشرين مجلداً من المحاكمات بسبب الاتصال الجنسى بين الرهبان والراهبات(١٠) . ويتحدث أريتينو عن راهبات البندقية حديثاً لا تطاوع الإنسان نفسه على أن

ينطق به[١١] ؛ وجوتشياردينى ، الرجل الرزين المعتدل عادة ، يخرج عن طوره ويفقد اتزانه حين يصف رومة فيقول : « أما بلاط رومة فإن المرء لا يستطيع أن يصفه بما يستحق من القسوة ، فهو العار الذى لا ينمحى أبد الدهر ، وهى مضرب المثل فى كل ما هو خسيس مخجل فى العالم » .

ويبدو أن هذه شهادات مبالغ فيها ، وقد تكون غير نزيهة ، ولكن استمعوا إلى قول القديسة كترين السينائية :

« إنك أينما وليت وجهك — سواء نحو القساوسة أو الأساقفة أو غيرهم من رجال الدين ، أو الطوائف الدينية المختلفة ، أو الأحبار من الطبقات الدنيا أو العليا ، سواء كانوا صغاراً فى السن أو كبارا — لم تر إلا شراً ورذيلة ، تزكم أنفك رائحة الخطايا الآدمية البشعة . إنهم كلهم ضيقو العقل ، شرهون ، بخلاء . . . تخلوا عن رعاية الأرواح . . . . اتخذوا بطونهم إلهآلهم ، يأكلون ويشربون فى الولائم الصاخبة ، حيث يتمرغون فى الأقذار ويقضون حياتهم فى الفسق والفجور . . . ويطعمون أبناءهم من مال الفقراء . . . ويفرون من الخدمات الدينيـــة فرارهم من السجون »[١٣] .

وهنا أيضاً يجب أن نسقط بعض ما يحتويه هذا الوصف من مبالغة ، إذ ليس فى وسع الإنسان أن يثق بأن الولى الصالح يتحدث عن سلوك الآدميين وهو غير غاضب . ولكن فى وسعنا أن نصدق هذه الخلاصة التى يعرضها مؤرخ كاثوليكى صريح :

« وإذا كانت هذه هى حال الطبقات العليا من رجال الدين فإن المرء لا يعجب إذا كان من دونهم من الطبقات ومن القساوسة قد انتشرت بينهم الرذيلة على اختلاف أنواعها وأخذ انتشارها يزداد على مدى الأيام . ألا إن إن الحياء قد زال من العالم . . . ولقد كان أمثال أولئك القساوسة هم الذين دفعوا إرزمس ولوثر إلى وصفهما المبالغ فيه لرجال الدين حين زارا

رومة فى أيام يوليوس الثانى . غير أن من الخطأ أن يظن المرء أن القساوسة كانوا فى رومة أكثر فساداً منهم فى غيرها من المدن . ذلك أن لدينا من الوثائق ما يثبت بالدليل القاطع فساد أخلاق القسيسين فى كل مدينة تقريباً من مدن شبه الجزيرة الإيطالية . بل إن الحال فى كثير من الأماكن — كالبندقية مثلا — كانت أسوأ كثيراً منها فى رومة . فلا عجب والحالة هذه إذا تضاءل نفوذ رجال الدين كما يشهد بذلك مع الأسف الشديد الكتاب المعاصرون ، وإذا كان المرء لا يكاد يجد فى كثير من الأماكن أى احترام يظهره الشعب للقسيسين . ذلك أن الفساد قد استشرى بينهم إلى حد بدأنا نسمع معه آراء تجيز زواجهم . . . ولقد كان الكثير من الأديرة فى حال يرثى لها . وأغفلت فى بعضها الأيمان الثلاث الأساسية بالتزام الفقر ، والعفة ، والطاعة إغفالا يكاد يكون تاماً . . . . ولم يكن النظام فى كثير من أديرة النساء أقل من هذا فساداً(١٤) .

وإذا ما عفونا عن بعض هذا الشذوذ الجنسى والانهماك فى ملاذ المأكل والمشرب فإنا لا نستطيع أن نعفو عن أعمال محاكم التفتيش ، وإن كانت هذه المحاكم قد اضمحل شأنها فى إيطاليا اضمحلالا كبيرا أثناء القرن الخامس عشر . مثال ذلك أن أماديو ده لاندى Amadeo de' Landi ، أحد علماء الرياضة ، حوكم فى عام ١٤٤٠ لأنه اتهم بالمادية وصدر الحكم ببراءته ؛ وحدث فى عام ١٤٧٨ أن حكم بالإعدام على جاليتو مارتشيو Galeotto Marcio لأنه كتب يقول إن أى إنسان يحيا حياة صالحة يكون مصيره الجنة أيا كان دينه ، ولكن البابا سكستس الرابع أنجاه من الموت(١٥) ؛ وفى عام ١٤٩٧ حمى مرضى جبريلى دا سالو Gabriele de Salo هذا الطبيب من محكمة التفتيش مع أنه قال إن المسيح ليس إلها ، بل هو ابن يوسف ومريم ، حملت به أمه بنفس الطريقة السخيفة التى تحمل بها كل أم ؛ وإن جسم المسيح لا يحتويه العشاء الربانى ، وإنه لم يفعل المعجزات بقوة إلهية

بل بتأثير النجوم(١٧) ؛ وهكذا تنفى كل أسطورة غيرها من الأساطير ، وفى عام ١٥٠٠ أحرق چيورچيو دا ناڤارا Giorgio da Navara فى بولونيا لأنه ، على ما يظهر ، أنكر ألوهية المسيح ، ولم يكن له من يحميه من الأصدقاء أصحاب النفوذ . وفى ذلك العام نفسه أعلن أسقف أرندا Aranda أن ليس ثمة جنة ولا نار ، وأن صكوك الغفران ليست إلا وسيلة لجمع الأموال ، ولم يوقع عليه مع ذلك أى عقاب(١٨) . وفى عام ١٥١٠ أراد فردناند الكاثوليكى أن يدخل محاكم التفتيش فى نابلى ، ولكنه لقى مقاومة عنيفة من جميع السكان على اختلاف طبقاتهم اضطر معها إلى التخلى عن هذه المحاولة(١٩) .

وكان فى وسط هذا الانحلال الكنسى عدة مراكز للإصلاح الطيب . من ذلك أن البابا پيوس الثانى أبعد أحد رؤساء الرهبان الدمنيكيين من مركزه ، وأدخل النظام فى أديرة البنادكتية ، وبرتشيا ، وفلورنس ، وسينا . وفى عام ١٥١٧ أنشأ سادوليتو ، وچيبيرتى Geberti ، وكارفا Caraffa وغيرهم من رجال الكنيسة « محراب الحب القدسى » ليكون مركزاً لأتقياء الرجال الذين يريدون ملجأ مما فى رومة من انهماك وثنى مفاتن الدنيا . وفى عام ١٥٢٣ أنشأ كارفا طائفة الثياتين Theatines ، التى يعيش فيها القساوسة غير المنتمين إلى طوائف الرهبان معيشة يستمسكون فيها بقواعد الرهبنة ، من عفة ، وطاعة ، وفقر . ونزل الكردنال كارفا عن كل مرتباته ووزع جميع أملاكه على الفقراء ؛ وحذا حذوه القديس جيتانو Saint Gaetano وهو أيضاً من مؤسسى طائفة الثياتين . وكان كثيرون من هؤلاء الأنقياء الصالحين رجالا كرام المحتد ، عظيمى الثراء ، وقد أدهشوا رومة باستمساكهم الشديد بالقواعد التى فرضوها على أنفسهم ، وبزياراتهم لضحايا الطاعون دون أن يخشوا الموت . وفى عام ١٥٣٣ أنشأ أنطونيو ماريا زكريا Antonio Maria Zaccaria طائفة مماثلة لهذه من القساوسة فى ميلان ، سمى أفرادها أولا قساوسة القديس بولس النظاميين ، ولكنهم لم يلبثوا أن

تسموا باسم البرنابيين Barnabites نسبة إلى كنيسة القديس برنابا St. Barnabas . ووضع كارفا برنامجاً طيباً لإصلاح رجال الدين فى البندقية ، وحاول چيبرتى إدخال إصلاحات مثلها فى أسقفية ڤيرونا (١٥٢٨ — ١٥٣١) . وأصلح إجيديو كانيسيو Egidio Canisio أحوال النساك الأوغسطينيين ، وكذلك أدخل جريجريو كرتيزى Gregoreo, Cortese إصلاحات شبيهة بإصلاحاته بين الرهبان البندكتيين فى پادوا .

وكان أكبر ما بذل من الجهود لإصلاح الأديرة فى ذلك العصر هو تأسيس طائفة الكاپوتشين Capuhin Order . فقد خيل إلى ماتيو دى بسى Matteo di Bassi أحد الرهبان الفرنسيس المتزمتين من مونتى فلكونى Montefalcone أنه رأى القديس فرانسس فى رؤيا رأنه سمعه يناديه بقوله : « أحب أن تتبع قاعدتى بنصها ، بنصها ، بنصها » . وعرف أن القديس فرانسس كان يلبس قلنسوة مستدقة ذات أربعة أركان ، فاتخذ مثلها غطاء لرأسه . وسافر إلى رومة وحصل من البابا كلمنت السابع (١٥٢٨) على إذن بانشاء فرع جديد من طائفة الرهبان الفرنسيس يمتازون من غيرهم بقلانسهم ، وبالتزامهم القاعدة الأخيرة من قواعد القديس فرانسس . وكانوا يلبسون أخشن الثياب ، ويمشون حفاة طول العام ، ويعيشون على الخبز ، والخضر ، والفاكهة ، والماء ؛ ويراعون فروض الصيام الدقيق ، وينامون فى صوامع ضيقة فى أكواخ فقيرة مقامة من الخشب والطين ، ولا يسافرون قط إلا راجلين . ولم يكن عدد أفراد الطائفة الجديدة كبيراً ولكنها كانت مثلا حافزاً للإصلاح الواسع الانتشار الذى نسرب إلى طوائف رهبان الأديرة والرهبان المتسولين فى القرنين السادس عشر والسابع عشر (٢٠).

وقد بدئت بعض هذه الإصلاحات استجابة إلى دعوة الإصلاح البروتستنتى ؛ لكن كثيراً منها قد نشأ من تلقاء نفسه ، وكان شاهداً على ما فى المسيحية والكنيسة من قوة حيوية كانت سبباً فى نجاتهما .

obeikandl.com

الفصل الثالث

الأخلاق الجنسية

ولننتقل بعدئذ إلى أخلاق غير رجال الدين ، ونبدأ بالعلاقة بين الرجال والنساء ، ونذكر من بادئ الأمر أن الإنسان بفطرته ينزع إلى تعدد الأزواج ، وأن لا شيء يستطيع أن يقنعه بالزوجة الواحدة إلا أقسى العقوبات ، ودرجة كافية من الفقر والعمل الشاق ، ومراقبة زوجته له مراقبة دائمة . ولسنا واثقين من أن الزنا كان فى العصور الوسطى أقل انتشارا مما كان فى عصر النهضة ؛ وكما أن الزنا فى العصور الوسطى كانت تخفف من مساوئه روح الفروسية وما فيها من شهامة ، كذلك كان يخفف من هذه المساوئ بين الطبقات المثقفة التقدير المثالى لرقة المرأة المتعلمة ومفاتنها الروحية . وساعدت زيادة التكافؤ بين الجنسين فى التعليم والمركز الاجتماعى على خلق رفقة عقلية جديدة بين الرجال والنساء ؛ فكانت الحياة فى مانتوا ، وميلان ، وأربينو ، وفيرارا ، ونابلى تزدان وتزداد حمية بظهور النساء الفاتنات المثقفات .

وكانت فتيات الأسر العريقة يحتجبن إلى حد ما عن الرجال من غير أسرهم . وكن يلقنّ على الدوام دروساً فى مزايا الاستعفاف قبل الزواج ؛ وكان هذا التلقين يلقى أحياناً من النجاح درجة نسمع معها أن فتاة أغرقت نفسها بعد أن اعتدى على عفافها ، وإن كان هذا بلا شك فعلا شاذاً بدليل أن أسقفاً اقترح أن يقام لهذه الفتاة تمثال[٢١] ، وفى المقابر الرومانية امرأة عريقة النسب خنقت نفسها لتنقذ شرفها ، وحمل جسمها فى موكب نصر مخترقاً شوارع رومة وعلى رأسها إكليل من الغار[٢٢] . بيد أنه كانت هناك بلا شك مغامرات كثيرة من فتيان وفتيات قبل الزواج ؛ ولولا هذا

لما استطعنا أن نفسر وجود ذلك العدد الجم من الأبناء غير الشرعيين فى كل بلد من بلاد إيطاليا فى عصر النهضة . لقد كان من ليس له أبناء غير شرعيين من الرجال والنساء يعد شخصاً ممتازاً يحق له أن يفخر على غيره ، ولكن وجود أولئك الأبناء لم يكن يجلل أبويهم عاراً كبيراً ؛ وكان الرجل إذا تزوج يستطيع فى العادة أن يقنع زوجته بأن تقبل انضمام أبنائه غير الشرعيين إلى أسرته لكى يربوا مع أبنائها منه ، ولم تكن حال الابن غير الشرعى عقبة كأداء فى سبيله ؛ ويكاد المجتمع لا يلقى بالا مطلقاً إلى هذه الوصمة الاجتماعية . وكان فى وسع النغل أن يعد ابناً شرعياً بهبة ينقحها لرجال الكنيسة . كما كان فى وسعه أن يرث أملاك أبويه ، وأن يرث العرش نفسه إذا لم يكن له أخ شرعى يليق بهذه الوراثة ، أو لم يكن له أخ شرعى على الإطلاق . مثال ذلك أن فيرانتى الأول خلف ألفنسو الأول على عرش نابلى ، وأن ليونلو دست خلف نقولو الثالث على عرش فرارا . ولما أن قدم پيوس الثالث إلى فرارا فى عام ١٤٩٥ استقبله سبعة من الأمراء كلهم أبناء غير شرعيين(٢٣) . وكان التنافس بين الأبناء الشرعيين وغير الشرعيين مصدر كثير من حوادث العنف فى عصر النهضة ؛ كما كانت نصف الروايات تدور حول إغواء النساء ، وكانت النساء يقرأن فى العادة هذه القصص أو يستمعنها ، وكل ما يظهرنه من دلائل الحياء أن يطرقن بأبصارهن لحظات قصارا . وقد وصف ربرت أسقف أكوينو فى أواخر القرن الخامس عشر أخلاق الشبان فى أسقفيته بأنها فاسدة ، وقال إن أولئك الشبان لا يستحون من هذا الفساد . ويروى أنهم كانوا يقولون له إن الفسق ليس من الخطايا ، وإن العفة من الأوامر التى عفا عليها الزمان ، وإن عادة احتفاظ البنات بعذرتهن آخذة فى الزوال(٢٤) . وحتى مضاجعة المحارم كان لها من يحبذونها ويتباهون بها .

أما اللواط فقد كاد يصبح من مستلزمات بعث الحضارة اليونانية .

بين سكان البلد البالغين ٩٠٫٠٠٠ نسمة(٣٢) ويقدر التعداد الذى أجرى فى البندقية عام ١٥٠٩ عدد العاهرات بـ ١١٫٦٥٤ عاهراً من بين سكانها البالغ عددهم نحو ٣٠٠٫٠٠٠(٣٣) ؛ وقد نشر طابع مغامر « سجلا بأشهر المحاظى وأشرفهن فى البندقية احتوى أسماءهن ، وعناوينهن ، وأجورهن » . وكن فى الطرق يترددن على الحانات ، وفى المدن ينزلن عادة فى ضيافة الفتيان اليافعين ، والفنانين المتلهفين. ويصف لنا متشيلينى ليلة قضاها مع حظية له كأنها حادث عادى غير ذى بال ، كما يصف عشاء لجماعة من الفنانين من بينهم جوليو رومانو وهو نفسه ، وقد طلب إلى كل واحد من الحاضرين أن يأتى بامرأة غير متمنعة ، وفى مأدبة أخرى أرقى من هذه درجة أقامها لورندسو استروتسى المصرفى فى عام ١٥١٩ لأربعة عشر شخصاً من بينهم أربعة كرادلة وثلاث نساء من الخليعات(٣٥) .

ولما ازداد الثراء وازدادت الرغبة فى التنعم بدأ الأثرياء المنعمون يطلبون المحاظى اللائى يتمتعن بقسط من التعليم والمفاتن الاجتماعية ، وكما أن طائفة الخليلات قد نشأت فى أثينة أيام سفكليز للوفاء بهذا المطلب ، كذلك نشأت فى روما فى أواخر القرن الخامس عشر وفى البندقية فى القرن السادس عشر طبقة من الخليلات المهذبات ينافسن أظرف السيدات فى ثيابهن ، وآدابهن ، وثقافتهن ، بل وفى تقاهن وترددهن على الكنائس فى أيام الآحاد : وبينما كانت العاهرات العموميات يمارسن حرفتهن فى المواخير ، كانت الخليلات الرومانيات السالفات الذكر يقمن فى بيوتهن ، وينفقن بسخاء كبير على المآدب ، ويقرأن الكتب ، ويقرضن الشعر ، ويغنين ، ويعزفن على الآلات الموسيقية ، ويشتركن فى الأحاديث مع الطبقة المثقفة المتعلمة ؛ ومنهن من كن يجمعن الصور والتماثيل ، والطبعات النادرة من الكتب وآخر ما صدر منها ؛ ومنهن من كن يعقدن الندوات الأدبية . وأردن أن يحتفظن بمقامهن لدى الكتاب الإنسانيين فتسمت الكثيرات منهن بأسماء لاتينية — كامليا ، يولكسينا ، وبنثسيليا Penthesilea ، وفوستينا Faustina ، وإمپيريا

Imperia ، وتوليا Tullia . وكتب أحد الظرفاء الأفاكين ، فى أيام البابا اسكندر السادس مجموعة من النكت الشعرية بدأها بطائفة مما فى مدح العذراء أو القديسين ثم اتبعها بلا جياء بطائفة أخرى فى الثناء على العشيقات فى أيامه(٣٦) . ولما ماتت إحدى أولئك العشيقات حزن عليها نصف سكان رومة ، وكان ميكل أنجيلو من الكثيرين الذين أنشاوا الأغانى تخليداً لذكراها(٣٧) .

وأشهر هاته الخليلات المهذبات إمپيرتا ده كنياتس Imperia de Cugnatis . وقد أثرت هذه السيدة مما كان يغدقه عليها نصيرها ومحاميها أجستينو تشيجى Agostino Chigi ، فزينت بينها بالأثاث المترف الوثير والتحف النادرة ، وجمعت حولها طائفة كبيرة من العلماء ، والفنانين ، والشعراء ، ورجال الدين ؛ وحتى سادوليتو Sadoleto النقى نفسه كان يتغنى بمديحها(٣٨) . وأكبر الظن أن إمپيريا هذه هى التى اتخذها رفائيل نموذجاً لساپفو فى صورة البرناسوس Barnassus . وماتت فى ريعان شبابها ونضرة جمالها ولم تتجاوز السادسة والعشرين من عمرها (١٥١١) ؛ وكرمت بعد موتها بأن دفنت فى كنيسة سان جريجوريو San Gregorio ، وأقيم لها قبر من الرخام محفور أجمل حفر ومصقول أحسن صقل ؛ ورثاها مائة شاعر بأفخم المراثى(٣٩) . (وجدير بالذكر أن ابنتها آثرت الانتحار على التفريط فى عرضها(٤٠)) . ولا تقل عنها شهرة توليا الأرغونية Tullia d' Aragona ابنة كردنال أرغونة الغير الشرعية . وكان أهل زمانها يعجبون بشعرها الذهبى وعينيها البراقتين ، وسخائها ، وعدم اهتمامها بالمال ، ورشاقة قوامها ، وسحر حديثها ؛ واستقبلت فى نابلى ، ورومة ، وفلورنس ، وفيرارا استقبال الأمراء الزائرين . وقد وصف سفير مانتوا فى فيرارا دخولها المدينة فى رسالة غير دبلوماسية بعث بها إلى إزبلا دست عام ١٥٣٧ قال فيها :

أرى من واجبى أن أسجل مقدم سيدة ظريفة بلغ من تواضعها فى سلوكها وافتتان الناس بأدبها مبلغاً لا يسعنا معه إلا أن نصفها بأنها ربانية . وهى تغنى

ارتجالا جميع النغمات والألحان . . . وليس فى فيرارا كلها سيدة واحدة ، ولا ڤكتوريا كولونيا Victória Colonna دوقة بسكارا Pescara يمكن أن تقارن بتوليا(٤١) .

وقد رسم مورتو ده بريشيا Moretto de Brescia صورة ساخرة لها تبدو فيها بريئة براءة الراهبة الحديثة العهد بالرهبنة . وقد أخطأت إذ عاشت بعد أن زالت مفاتنها ، وماتت فى كوخ حقير قريب من نهر التبر ؛ وبيع كل ما تمتلكه بالمزاد فلم يزد ثمنه على اثنى عشر كروناً (١٥٠ ؟ دولارا) ولكنها احتفظت رغم فقرها بعودها ومعزفها إلى آخر أيام حياتها . وتركت وراءها أيضاً كتاباً ألفته (٤٢) **فى خلود الحب الكامل**

وما من شك فى أن هذا العنوان يدل على الطراز الذى كان يتحدث به المتحدثون ويكتب به للكتاب عن الحب العذرى فى عهد النهضة . فإذا لم تسمح امرأة لنفسها أن تزنى فى تلك الأيام ، فقد كان يسمح لها على الأقل بأن تثير فى الرجل نوعاً من الغرام الشعرى ، فتهدى إليها القصائد والمجاملات الأدبية والمؤلفات . وتشأت فى تلك الأيام بتأثير هيام شعراء الفروسية الغزلين ، **والحياة الجديدة** لدانتى ، وأحاديث أفلاطون عن الحب الروحى فى عدد قليل من الجماعات عاطفة رقيقة من الهيام بالمرأة — كانت عادة زوج رحل غير المستهام بها . على أن الكثرة الغالبة من الناس لم يكونوا يعنون قط بهذه الفكرة ويفضلون على هذا الحب العذرى الحب الشهوانى الصريح ؛ فكانوا يكتبون الأغانى ولكن همهم الوحيد كان هو الاتصال الجنسى ، وقلما كان هذا الحب ينتهى بالزواج إلا فى حالات جد نادرة لا تتجاوز واحدا فى المائة وذلك على الرغم مما يكتبه الكتاب فى رواياتهم الغرامية .

ذلك أن الزواج فى تلك الأيام كان مسألة مال ، وكان جمع المال مستطاعاً دون حاجة إلى نزعات الشهوة الجسمية ، وكانت خطبة الزواج تنظم فى مجالس الأسر ، ويقبل معظم الشبان والفتيات دون احتجاج ذى أثر من

يختار زوجاً له أو لها . وكان من المستطاع خطبة البنت وهى فى الثالثة من عمرها ، وإن كان الزواج يؤجل فى العادة حتى تتم الثانية عشرة . وكانت البنت فى العصور الوسطى ، إذا بقيت حتى الخامسة عشرة دون زواج ، تجلل أسرتها العار . ثم أجلت تلك السن التى تجلب العار على الأسرة حتى السابعة عشرة فى القرن السادس عشر ، وذلك لكى يترك للفتاة من الوقت ما تستطيع معه الحصول على قسط من التعليم العالى(٤٣) : أما الرجال الذين يستمتعون بجميع ميزات الاختلاط الجنسى دون زواج ولا يجدون أية صعوبة فى هذا الاختلاط ، فلم يكن يستطاع إغراؤهم بالزواج إلا إذا جاءت الزوجة معها ببائنة قيمة . ومن أجل هذا وجدت فى أيام سفنرولا Savonarola كثيرات من البنات الصالحات لأن يكن زوجات واللائى عجزن عن أن يجدن أزواجاً لحاجتهن إلى البائنات . ولهذا أيضاً أنشأت فلورنس نوعاً من التأمين الذى يقضى بأن تقوم الدولة بأداء البائنات لمن هن فى حاجة إليها وأطلق على هذا النظام اسم : مال العذارى Motne delle fauciulle وكانت البنات يحصلن منه على بائناتهن إذا أدين قسطاً سنوياً قليلا(٤٤) . وفى سينا بلغ عدد الشبان العزاب من الكثرة ما اضطر المشرعين إلى فرض عقوبات قانونية عليهم ؛ وفى لوقا صدر فى عام ١٤٥٤ مرسوم يقضى بحرمان كل العزاب ما بين سن العشرين والخمسين من الوظائف العامة . وكتبت السندرا إستروتسى Alessandra Strozzi فى ذلك الوقت (١٤٥٥) تقول : « إن تلك الأيام غير ملائمة للزواج(٤٥) . ورسم رفائيل نحو خمسين صورة للعذارى ولكنه لم يرسم قط صورة زوجة ، وكان هذا هو الشىء الوحيد الذى اتفق معه ميكل أنچيلو فيه ، وكانت حفلات الزفاف نفسها تستنفد مبالغ طائلة من المال ؛ وها هو ذا ليوناردو برونى Leonado Bruni يشكو من أن زواجه قد ذهب بميراثه(٤٦) . وكان الملوك والملكات ، والأمراء والأميرات ، يقفون ما يعادل مليون دولار على حفلة زفاف بينما كان القحط يقضى على حياة أبناء الشعب(٤٧) . وأعد ألفنسو العظيم Alfonso the Magnificent صاحب

ناپلى مأدبة عشاء لثلاثين ألفاً على ساحل الخليج . وكان أجمل من هذا وأفخم الحفل الذى أقامه أربينو لاستقبال الدوق جويلدو حين جاء من مانتوا بعروسه إلزبتا جندساجا : فقد اصطفت على سفح أحد التلال نساء المدينة فى أبهى الحلل ، واصطف أمامهن أطفالهن يحملون أغصان الزيتون ؛ ومن ورائهم منشدون على ظهور الجياد فى أشكال بديعة يرددون أغانى وضعت لهذه المناسبة خاصة ، وقدمت سيدة جميلة تمثل إحدى الإلهات إلى الدوقة الجديدة ولاء أهل المدينة وعظيم حبهم(٤٨) .

وكانت المرأة بعد الزواج تحتفظ غادة باسمها الخاص ؛ فهاهى ذى زوجة لورندسو ظلت تسمى السيدة كلارتشى أرسينى Clarice Orsine ، على أنه كان يحدث أحياناً أن تضيف الزوجة إلى اسمها اسم زوجها — مثل ماريا سلفيانى ده ميديتشى Maria Salviati de Medici وكان ينتظر حسب نظرية الحب فى العصور الوسطى أن ينشأ الحب بين الرجل وزوجته أثناء اشتراكهما خلال الزواج فى الأفراح والأتراح ، والرخاء والشدة ، ويلوح أن هذا هو الذى كان يحدث فى معظم الحالات . ولسنا نعرف حباً نشأ بين فتى وفتاة أعمق أو أصـــدق من الحب الذى نشأ بين فيكتوريا كولنا والمركيز پيسكارا Pescara وقد خطبت له وهى فى الرابعة ، كما لا نعرف إخلاصا أعظم من إخلاص إلزبتا جندساجا التى صحبت زوجها المقعد فى جميع ما أصابه من محن ونفى ، وظلت وفية لذكراه حتى توفيت .

ومع هذا فإن الزنا كان واسع الانتشار(٤٩) . وإذ كانت معظم الزيجات التى تعقد بين أفراد الطبقات العليا زيجات دبلوماسية تبتغى بها المصالح الاقتصادية أو السياسية ، فقد كان كثيرون من الأزواج يرون أن من حقهم أن تكون للواحد منهم عشيقة ؛ وكانت الزوجة فى العادة تغمض عينيها عن هذه الإساءة أو تطبق شفتيها فلا تنطبق بشىء مما قد تشعر به من أسى نتيجة لهذا التصرف . وكان بعض رجال الطبقات الوسطى يدعون أن الزنا من

الملاهى المشروعة . ويلوح أن مكيفلى وأصدقاءه لم يكونوا يتحرجون عن تبادل الرسائل المفصحة عن خياناتهم لزوجاتهم . وإذا ما ثأرت الزوجة لنفسها من زوجها فاقتدت به كان الزوج فى كثير من الأحيان يتجاهل فعلها هذا ويحمل قرنيه راضياً(٥٠) . لكن تدفق الأسبان على إيطاليا عن طريق نابلى وبتشجيع الإسكندر السادس وشارل الخامس جاء إلى الحياة الإيطالية بالغيرة على العرض والشرف ، فكان الزوج فى القرن السادس عشر يرى من واجبه أن يعاقب زوجته بالموت إذا زنت فى الوقت الذى يحتفظ فيه هو بميزاته الفطرية كاملة غير منقوصة . وكان فى وسع الزوج أن يهجر زوجته وأن ينعم مع ذلك بالحياة ؛ أما الزوجة إذا هجرها زوجها فلم يكن أمامها إلا أن تطالب برد بائنتها ، ثم تعود إلى بيت أهلها ، وتعيش عزبة لأنها لم يكن يسمح لها بأن تتزوج مرة أخرى . وكان فى وسعها أن تدخل الدير ، ولكنه كان ينتظر منها فى هذه الحال أن تهبه جزءاً من بائنتها(٥١) . ويمكن القول بوجه عام إن الزنا كان يتخذ سلوى يستعاض بها عن الطلاق .

الفصل الرابع

الرجل فى عصر النهضة

كان اجتماع التحرر الفكرى والتحلل من القيود الخلقية هو الذى أوجد « رجل النهضة » ؛ غير أنه لم تكن له من الخواص ما يجعله خليقاً بذلك اللقب . فقد كان فى ذلك العصر كما كان فى غيره من العصور أكثر من عشرة أنماط . وكل ما كان له من ميزة أنه كان ممتعاً طريفاً ، ولعل سبب ذلك أنه كان من طراز شاذ غير مألوف . وكان فلاح النهضة هو الفلاح بعينه فى جميع العهود إلى أن جعلت الآلات الزراعة صناعة . وكان دهماء المدن الإيطالية فى عام ١٥٠٠ كما كانوا فى رومة فى عهد القياصرة أو فى أيام مسولينى ، ذلك أن المهنة هى التى تطبع الرجل بطابعها ، كذلك كان رجل الأعمال فى عصر النهضة شبيهاً بأمثاله فى الماضى والحاضر . أما القس فى ذلك العصر فكان يختلف عن قس العصور الوسطى أوقس هذه الأيام ؛ فقد كان أقل إيماناً منهما بالدين وأكثر استمتاعاً بالدنيا ، وكان فى وسعه أن يعشق ويحارب . ثم حدث فى هذه الأنماط تغير فجائى يستلفت النظر ، أدى إلى انحراف فى النوع وفى طراز العصر ، ونشأ عنه الرجل الذى ترتسم صورته فى ذهننا حين نقول إن رجل النهضة طراز فذ فى التاريخ ، وإن كان ألقبيادس إذا رآه أحس بأنه طراز قديم ولد من جديد .

وكانت خصائص هذا الطراز تدور حول بؤرتين : الجرأة الفكرية والخلقية . كان حاد الذهن ، يقظاً ، متعدد الكفايات ، مستعداً لقبول كل مؤثر وكل فكرة ، مرهف الحس بالجمال ، حريصاً على نيل الشهرة . وكانت له روح ذات نزعة فردية جريئة عديمة المبالاة ، تعمل على تنمية جميع المواهب الكامنة فيها ؛ روح مزهوة فخورة تسخر من الذلة المسيحية ،

وتحتقر الضعف والجبن ، وتتحدى العرف ، والتقاليد ؛ والأخلاق ، والمحرمات ، والبابوات ، بل تتحدى الله نفسه فى بعض الأحيان . وكان فى وسع هذا الرجل أن يقود حزباً ثائراً فى المدينة ؛ أو جيشاً فى الدولة ؛ فإذا كان من رجال الكنيسة فقد كان يسعه أن يجمع مائة منصب تحت مسوحه ، وأن يستخدم ثروته فى الوصول إلى السلطان . وفى الفن لم يعد هذا الرجل صانعاً يعمل مغموراً مع غيره فى مشروع جماعى كما كان يعمل نظيره فى العصور الوسطى ؛ لقد كان شخصاً « منفرداً منفصلا عن غيره » يطبع أعماله بطابعه ، ويوقع باسمه على ما يرسمه من الصور ، بل كان من حين إلى حين يحفره على ما يصنعه من تماثيل كما حفر ميكل أنجيلو اسمه على تمثال العذراء وهى تندب طفلها . ومهما تكن الأعمال التى يقوم بها رجل النهضة هذا فقد كان فى حركة دائمة ، ساخطاً ، متأففاً من القيود ، تواقاً لأن يكون « رجلا عالمياً » — جريئاً فى تفكيره ، حاسماً فى أفعاله ، فصيحاً فى أقواله ، ماهراً فى فنه ، ملماً بالأدب والفلسفة ، ليس غريباً على النساء فى القصور ولا عن الجند فى المعسكرات .

ولم يكن فساد خلقه إلا جزءاً من نزعته الانفرادية ؛ وإذ كان هدفه هو أن ينجح فى التعبير عن شخصيته ، وكانت بيئته لا تفرض عليه أية معايير يتقيد بها فلا يجد قدوة يقتدى بها بين رجال الدين ، ولا يجد ما يرهبه فى العقيدة الربانية ، فإنه يجيز لنفسه أن يسلك أية وسيلة تبلغه غايته ، ويستمتع بكل لذة تصادفه فى الطريق . لكنه رغم هذا كله كانت له فضائله . لقد كان رجلا واقعياً ، قلما ينطق بتافه القول إلا لامرأة برمة . وكان مؤدباً إذا لم يكن يقتل ، وحتى فى هذه الحال كان يفضل أن يقتل فى غير قسوة . وكان ذا نشاط ، وقوة فى الخلق ، وذا إرادة موجهة موحَّدة ؛ وكان يقبل المعنى الذى يفهمه الرومان الأقدمون من لفظ الفضيلة وهو « الرجولة » ؛ ولكنه كان يضيف إلى هذا المعنى الحذق والذكاء . ولم يكن مسرفاً فى القسوة من

غير داع ، وكان يمتاز عن الرومان الأقدمين باستعداده لأن يكون تقياً صالحاً . وكان معجباً بنفسه ، غير أن هذا الإعجاب لم يكن إلا وليد إحساسه بالجمال وحسن الشكل . وكان تقديره للجمال فى المرأة والطبيعة ، وفى الفن والجريمة ، هو المصدر الأساسى للنهضة . وقد استبدل حاسة الجمال بالحاسة الخلقية ؛ ولو أن هذا الطراز من الرجال قد تضاعف وغلب على غيره لحلت أرستقراطية فى الذوق لا تيقظها تبعات محل أرستقراطية المولد أو الثروة .

لكننا نقول مرة أخرى إنه لم يكن غير نوع واحد من أنواع كثيرة من رجل النهضة . ألا ما أعظم الفرق بين بيكوذى النزعة المثالية واعتقاده بقدرة بنى الإنسان على أن يبلغوا بأخلاقهم درجة الكمال ، وبين سفنرولا الصارم الذى لا تبصر عينه الجمال ، والمنهمك فى التقى والاستقامة ، وبين رفائيل الظريف الرشيق الذى ينشر الجمال من حوله بسخاء ، وميكل أنجيلو ذى الجنة ، الذى طغى على عقله التفكير فى يوم الحساب قبل أن يصوره ، وبوليتيان صاحب النغم الحلو الذى ظن أن الرحمة موجودة حتى فى الجحيم ، وفنورينودا فلترى الأمين الذى نجح أيما نجاح فى الجمع بين زينون والمسيح ؛ وجوليانو ده ميديتشى الثانى الذى بلغ من رحمته فى عدالته درجة رأى معها أخوه البابا أنه لا يصلح للقيام بأعباء الحكم ! ما أعظم الفرق بين هؤلاء مع أنهم جميعاً من رجال النهضة . وإنا لندرك رغم ما نبذله من الجهد فى اختصار البحث ، وصياغة القواعد العامة ، أنه لم يكن ثمة رجل يصح أن يطلق عليه اسم « رجل النهضة » : لقد كان فى ذلك العصر رجال لا يتفقون إلا فى شىء واحد ! وهو أن الحياة لم تبلغ من الشدة ما بلغته فى تلك الأيام .

لقد كانت العصور الوسطى تقول — أوتدعى أنقول — لا للحياة ؛ أما النهضة فكانت تقول لها نعم بقلبها ، وروحها ، وبكل ما كان فيها من قوة .

الفصل الخامس

المرأة فى عصر النهضة

كان ظهور المرأة فى المجتمع من أبهج مظاهر ذلك العصر ؛ وكانت مكانتها فى التاريخ ترتفع فى العادة كلما زاد الثراء وإن استثنينا من ذلك حالها فى البلاد الشديدة القرب من الشرق فى أيام بركليز . ويرجع السبب فى ارتفاع منزلة المرأة كلما زاد الثراء إلى أن الرجل إذا لم يعد يخشى الجوع ولى وجهه نحو المرأة ؛ وأنه إذا ما ظل يسخر حياته لطلب المال فإنما يفعل ذلك ليضعه بين قدمى المرأة ، أوبين يدى الأطفال الذين جاءت له بهم ؛ وإذا قاومته تصورت له فى صورة المثل الأعلى ؛ وقد أوتيت فى العادة من الحصافة ما يجعلها تقاومه ، وتتقاضى منه أعلى ثمن نظير النعمة التى يغمر بهاؤها مشاعره إذا ما فكر فيها ، وإذا ما جمت إلى مفاتنها الجسمية محاسن عقلها وخلقها ، وهبته أعظم ما يطمع فيه من السعادة التى لا يسمو عليها إلا ما يطمع فيه من المجد وخلود الذكر ، وهو فى نظير هذا يرفع منزلتها حتى تصبح مالكة حياته المسيطرة عليها .

على أننا لا ينبغى أن نظن أن هذه المكانة العليا كانت هى نصيب المرأة العادية فى عصر النهضة ، فالواقع أنه لم ينلها إلا قلة من النساء المحظوظات ؛ أما الكثرة الغالبة منهن فكن يخلعن ثياب العرس ليحملن أعباء المنزل ومتاعب الأسرة حتى يوارين الثرى : وليستمع القارئ إلى برنرد ينو يحدد الوقت المناسب لضرب الزوجة :

« وأوصيكم أيها الرجال ألا تضربوا زوجاتكم وهن حاملات فإن فى ذلك أشد الخطر عليهن . ولست أعنى بهذا أنكم يجب ألا تضربوهن أبداً ؛ ولكن الذى أعنيه أن تختاروا الوقت المناسب لهذا الضرب . . . وأنا أعرف

رجالا يهتمون بالدجاجة التى تضع بيضة فى كل يوم أكثر من اهتمامهم بأزواجهم . فقد تكسر الدجاجة أحياناً وعاء أو قدحاً ، ولكن الرجل لا يضربها خشية أن يفقد بذلك البيضة التى يحصل عليها منها ، إذن فما أشد جنون الكثيرين من الرجال الذين لا يطيقون سماع كلمة من زوجاتهم اللائى يأتين لهن بهذه الثمار الطيبة ! ذلك أن الواحد منهم إذا سمع من زوجته كلمة يرى أنها نابية ، عمد من فوره إلى عصا وشرع يضربها بها ، أما الدجاجة التى لا تنقطع عن الوقوقة طول النهار فإنه يصبر عليها من أجل بيضتها(٥٢) » .

وكانت الفتاة من الأسر العريقة تدرب عادة على النجاح فى الحصول على الزوج الثرى والاحتفاظ به ، وكان هذا التدريب أهم مادة فى منهج تعليمها . وكانت تبقى إلى ما قبل زواجها بضعة أسابيع فى عزلة إلى حد ما إما فى دير أو فى منزل أبويها ، تتلقى من معلميها أو من الراهبات تعليما لا يقل درجة عما يتلقاه جميع من فى طبقتها من الرجال إذا استثنينا منهم العلماء . وكانت فى العادة تتعلم شيئاً من اللغة اللاتينية ، وتدرس إلى حد ما كبار الشخصيات فى تاريخ اليونان والرومان ، وآدابهم ، وفلسفتهم . وكانت تعزف على بعض الآلات الموسيقية ، وتمارس أحياناً فن النحت والتصوير . وكان بعض النساء يبلغن منزلة العلماء ، ويناقشن علناً بعض المسائل الفلسفية مع الرجال ؛ ومن هؤلاء كسندرا فيديلى من نساء البندقية ؛ ولكن أمثالها كن من الشواذ النادرات الوجود . وكان عدد لا بأس به منهن يقرض الشعر الجيد مثل قسطنطنسا ڤارانا Contanza Varana ، وفيرونيكا جمبارا Veronica Gambara ، وڤتوريا كولنا . غير أن المرأة المتعلمة فى عصر النهضة ظلت محتفظة بأنوثتها ، وعقيدتها المسيحية وما توجبه عليها هذه العقيدة من القانون الأخلاقى ؛ وكان احتفاظها بهذه الصفات يهبها وحدة فى الثقافة والخلق يعز على رجل النهضة الراقى أن يقاومها .

ذلك أن الرجل المتعلم فى ذلك العصر كان يحس بجاذبيتها أشد الإحساس ،

وكان هذا الإحساس يصل به إلى درجة تدفعة إلى أن يؤلف ويقرأ الكتب التى تحلل مفاتنها تحليلا علمياً مفصلا . من ذلك أن أنيولو فيرندسو Agnolo Firenzulo الراهب الفلمبروزى Vallombrosan ألف حواراً موضوعه جمال المرأة ، وأظهر فى هذا الموضوع الشاق حذقاً وعلما غزيراً لايكادان يليقان بالرهبان . وهو يعرف الجمال نفسه كما يعرفه أفلاطون وأرسطو بأنه « التآلف المنتظم ، والتوافق الذى لايستطاع الوصول إلى كنهه ، والذى ينتج من وجود عناصر مختلفة ، واتحادها ، وتفاعلها ، بحيث أن كل عنصر من هذه العناصر يتناسب مع العناصر الباقية أتم التناسب وأحسنه ، وأن يكون بمفرده جميلا بمعنى ما ؛ ولكنها قبل أن تجتمع لتكون جسماً واحداً تختلف فيما بينها وتتنافر »(٥٣) . ثم يمضى فيبحث بمنتهى الدقة كل جزء من أجزاء المرأة ويضع الموازين القسط لجمال كل واحد منها ، فيقول إن الشعر يجب أن يكون غزيراً ، طويلا ، أشقر — ويفسر الأشقر بأنه أصفر خفيف الزرقة قريب من السمرة ؛ أما البشرة الجميلة فهى البراقة الصافية ولكنها ليست البيضاء الشاحبة ؛ والعينان الجميلتان هما السوداوان الكبيرتان ، الممتلئتان ، اللتان فيهما مسحة من الزرقة فى حدقة بيضاء ؛ أما الأنف فيجب ألا يكون أقنى ، لأن الأنف الأقنى منفر فى المرأة بنوع خاص ؛ ويجب أن يكون الفم صغيراً ، أما الشفتان فلابد أن تكونا ممتلئتين ، والذقن يجب أن يكون مستديراً ذا نونة ؛ والعنق يجب أن يكون مستديراً طويلا بعض الطول — ولكن يجب ألا تظهر فيه الحرقدة(*) ؛ ويجب أن تكون الكتفان عريضتين ، وأن يكون الصدر ممتلئاً منحدراً انحدار آومرتفعاً فى ظرف وخفة ، واليدان بضتين ممتلئتين ناعمتين ؛ والساقان طويلتين ، والقدمان صغيرتين(٥٤) . وإنا لنحس بأن فيرندسو لو قد أمضى كثيراً من الوقت يفكر فى موضوعه ، وأنه اكتشف موضوعاً جديداً بديعاً من موضوعات الفلسفة .

(*) الحرقدة عُقدة الحنجور Adam's apple .

ولم تقنع المرأة فى عهد النهضة بهذه المفاتن فمضت كما مضت أختها فى جميع العصور تصبغ شعرها — لتحيله على الدوام تقريباً أشقر — وتضيف إليه الضفائر المستعارة تكمله بها ؛ وتبتاعها من القرويات اللاتى كن يتقصصن غدائرهن بعد أن يذهب جمالهن ويعرضنها للبيع(٥٥) . وكانت المرأة الإيطالية فى القرن السادس عشر تجن جنوناً بالعطور ، تضمخ بها شعرها ، وقبعتها ، وقميصها ، وجوربيها ، وقفازيها ، وحذاءيها جميعها . ولقد امتدح أريتينو الدوق كوزيمو لأنه عطر له المال الذى بعث به إليه ، « ولاتزال بعض مخلفات ذلك العصر محتفظة برائحتها الذكية لم تفقدها بعد »(٥٦) . وكانت منضدة لباس السيدة ذات الثراء تميد بما عليها من مواد التجميل ، تحتويها عادة قوارير بديعة الشكل من العاج ، أو الفضة ، أو الذهب . ولم تكن الأصباغ الحمراء تستخدم فى الوجه وحده ، بل كانت يزين بها أيضاً الثديان ، وكانا فى المدن الكبيرة يترك الجزء الأكبر منهما عارياً(٥٧) . وكانت مستحضرات كثيرة تستخدم لإزالة العيوب الجسمية ، ولتلميع أظافر اليدين ، ولجعل البشرة ناعمة ملساء . وكانت الأزهار تزين الشعر والثياب ، واللؤلؤ والماس ، والياقوت ، والصفير (الياقوت الأزرق) والزمرد ، والعقيق ، والجمشت ، والزبرجد ، والياقوت الأصفر ، والمقيق تزين الأصابع فى الخواتم ، والذراعين فى الأساور ، والرأس فى الأكاليل ، والأذنين (بعد ١٥٢٥) فى الأقراط ، وكانت الحلى فوق ذلك ترصع بها أغطية الرأس ، والأثواب ، والأحذية ، والمراوح .

وكانت ملابس السيدات ، إذا جاز لنا أن نحكم عليها من صورهن ، كثيرة الكلفة ، ثقيلة الوزن ، غير مريحة للجسم . وكانت الأثواب المصنوعة من المخمل ، والحرير ، والفراء تتدلى فى ثنيات ضخمة من الكتفين ، أو من مشابك فوق الثديين إذا كانت الكتفان عاريتين . وكانت الأثواب تشد بمنطقة فى الوسط وتكنس الأرض خلف القدمين . وكان حذاء المرأة الثرية

عالياً عند باطن القدم وعند الكعب ، لكى يحفظ قدميها من أقذار الشوارع ؛ ومع هذا فإن وجهه الأعلى كان يصنع عادة من الديباج الرقيق المقصب . وكانت نساء الطبقات العليا وقتئذ تستخدم المناديل ، تصنع فى العادة من التيل ، وكثيراً ما كانت تخطط بالخيوط الذهبية أو توشى بالمخرم (الدنتلا) . كذلك كانت التنورات والثياب الداخلية توشى بالمخرم وتطرز بالحرير ؛ وكانت الأثواب أحياناً تعلو حتى تلتف حول العنق وتمنعها من التثنى أسلاك معدنية ، وكانت فى بعض الأحيان ترتفع فوق الرأس . أما أغطية رءوس النساء فكانت تتخذ مائة شكل وشكل : كان منها عمامات ، وتيجان ، ومناديل رأس ، أو أقنعة ، تمسك بالآلى ؛ أوقلانس مقامة على أسلاك معدنية ، أو شبيهة بقلانس الغلمان أو حراس الحراج . . ولما زار بعض الفرنسيين مدينة مانتوا سُروا وذهلوا حين رأوا المركيزة إزبلا تلبس قلنسوة ذات ريش من الجواهر ، ولكنها عارية الكتفين والصدر حتى حلمتى الثديين[٥٨] . وكثيراً ما شكا الواعظون من ارتفاع صدور النساء ارتفاعاً يراد به استلفات عيون الرجال . وكانت شهوة العرى تتملك النساء أحياناً إلى حد تخرج معه عن المعقول ، حتى لقد قال ساتشتى إن بعض النساء يتعرين تماماً إذا خلعن أحذيتهن[٥٩] . وكانت بعض النساء يشددن أجسامهن بمشدات يمكن تضييقها بإدارة مفتاح لها ، وقد رثى پترارك « لبطونهن التى ضغطنها فى غير رحمة حتى ليقاسين من الغرور آلاماً كالتى يقاسيها الشهداء لتمسكهم بالدين »[٦٠] .

وتسلحت نساء الطبقات العليا فى عصر النهضة بهذه الأسلحة الفتاكة فرفعن جنسهن من رق العصور الوسطى ومن حياة الدير المحتقرة حتى أصبحن متساوين مع الرجال . فقد كانت المرأة تتحدث مع الرجل حديث الند للند فى الأدب والفلسفة ، وكانت تحكم الدول حكماً يتصف بالفطنة والحصافة ، كما فعلت إزبلا ، أوبقوة ليست كمثلها قسو الرجال كما فعلت كترينا اسفورزا

وكانت أحياناً تلبس الزرد ، وتتبع زوجها إلى ميدان القتال ؛ وتفوقه فيما يصدر من أوامر العنف والقسوة . وكانت تأبى أن تغادر المجلس حين تروى القصص البذيئة ؛ ولم تكن تستحى مما تسمع ، فكانت تستمع إلى الألفاظ الصريحة المكشوفة دون أن تخدش هذه الألفاظ حياءها أو تفقدها فتنتها . وكم من امرأة إيطالية فى عهد النهضة سما بها عقلها أو سمت بها فضائلها إلى أرقى منزلة . نذكر منهن بيانكا مارية فسكنتى Biance Maria Visconti التى حكمت ميلان فى غياب زوجها فرانتشيسكو اسفوردسا بحزم وقوة لم يسعه معهما إلا أن يقول إنه يثق بها أكثر مما يثق بجيشه كله ، ثم إنها فى الوقت عينه اشتهرت « بالتقى ، والرأفة وكثرة الصدقات ، وروعة الجمال »(٦١) ونذكر كذلك إميليا پيو Emilia Pio التى مات زوجها وهى فى نضرة الشباب ، ولكنها احتفظت بذكراه إلى درجة أنه لم يعرف عنها فيما بقى من حياتها أنها شجعت رجلا ما بالالتفات إليها ؛ ولكريدسيا تورنابونى Lucrezia Tornaboni أم لورندسو الأفخم ومشكلة أخلاقه ، والزبتا جندساجا ، وبيتريس دست ، ولكريدسيا بورچيا الظريفة المفترى عليها وكترينا كرنارو Caterina Cornaro التى جعلت أسولو Asolo مدرسة الشعراء والفنانين ، والرجال المهذبين ، وڤيرونيكا جمبارا Veronica Gamdara الشاعرة صاحبة الندوة فى كريجيو Correggio ؛ وڤتوريا كولنا ربة ميكل أنچيلو التى لم يمسسها بشر .

وتمثلت فى ڤتوريا ، دون ما زهو وخيلاء ، جميع الفضائل الهادئة التى كانت للبطلات الرومانيات فى عهد الجمهورية ، ثم جمعت إلى هذه الفضائل أنبل الصفات المسيحية . وكانت فرع شجرة طيبة ممتازة : فكان والدها فبريدسيو كولنا Fabrizio Colonna ، كبير رجال الشرطة فى نابلى ، وأمها أنيزى ده منتيفيلترو Agnese de Montafeltro ابنة فيديريجو دوق أربينو المتبحر فى العلم : وقد خطبت وهى فى سن الطفولة لفبرانتى فرانتشيسكو دا ڤالوس Ferrante Francesco d'Avalos مركيز پيسكارا ؛

وتزوجتْ به حين بلغت التاسعة عشرة من عمرها (١٥٠٩) وكان الحب الذى ألف بينهما قبل الزواج وبعده قصيدة أجمل من كل الأغانى التى تبادلوها أثناء حروبه . ولما جرح فى واقعة راڤنا (١٥١٢) وأدناه الجرح من منيته وأسر ، انتهز الفراغ الذى أتاحه له أسره فألف **كتاب الحب** وأهداه إلى زوجته . وكان فى هذه الأثناء قد اتصل بإحدى وصيفات إزبلا دست(٦٢)، فلما أطلق سراحه عاد مسرعا إلى ڤتوريا ، ثم خرج إلى حرب بعد حرب ، حتى لم تكد تراه فيما بعد . فقد قاد جيوش شارل الخامس فى پاڤيا (١٥٢٥) ؛ وانتصر بها فى معركة حاسمة ، ولما عرض عليه تاج ناپلى إذا رضى أن ينضم إلى المؤتمرين على الإمبراطور فكر قليلا ثم كشف لشارل عن المؤامرة . ولما حضرته الوفاة (فى نوفمبر من عام ١٥٢٥) لم يكن قد رأى زوجه طيلة ثلاث سنين . وجهلت هى أو تجاهلت خياناته الزوجية ، فقضت السنين العشرين التى ترملتها بعده فى أعمال البر ، والتقى ، والوفاء لذكراه . ولما طلب إليها أن تتزوج مرة أخرى أجابت بقولها : « إن زوجى فرديناند الذى تظنونه مات ، لم يمت بالنسبة لى »(٦٣) . وعاشت بقية حياتها فى عزلة هادئة فى إسكيا Ischia ثم أوت إلى دير فى أرڤييتو وانتقلت منه إلى دير آخر فى ڤيتربو ، ثم عاشت فى عزلة شبيهة بعزلة الدير فى رومة . وهنا اتخذت لها عدداً من الأصدقاء الإيطاليين الذين كانوا يعطفون على حركة الإصلاح الدينى وإن ظلت هى مستمسكة بدينها القديم . ووضعت فترة من الزمان تحت رقابة محكمة التفتيش ، فكان الذى يجرؤ أن يكون صديقاً لها يتعرض للاتهام بالإلحاد . ولكن ميكل أنچيلو عرض نفسه لهذا الخطر ، ونشأت بينه وبينها علاقة حب روحانى لم يتعد قط حدود الشعر .

وحررت نساء النهضة المتعلمات أنفسهن دون أن يقمن بدعاوة ما لهذا التحرر ، ولم تكن وسيلتهن إليه غير ذكائهن ، وخلقهن ، وكياستهن ، وبما أرهفن من حواس للرجال بمفاتنهن الجنسية والروحية والعقلية . وقد

أثرن فى زمنهن فى كل ميدان من الميادين . فى الميدان السياسى لقدرتهن على حكم الدول بدلا من أزواجهن الغائبين ؛ وفى ميدان الأخلاق يجمعن بين الحرية وطيب العادات ، والصلاح ؛ وفى الفن بما أظهرن من جمال الأمومة الذى صورت على مثاله مئات من صور العذراء الأم ، وفى الأدب إذ فتحن أبوابهن للشعراء والعلماء وعطفن عليهم وابتسمن لهم . ولسنا ننكر أن كثيراً من الهجاء قد وجه وقتئذ للنساء كما وجه إليهن فى كل عصر من العصور ؛ ولكن كل بيت مرير أو ساخر قيل فيهن كان يقابله أوراد وتسابيح من المديح والابتهال . وقصارى القول أن النهضة الإيطالية ، كالاستنارة الفرنسية ، قامت على أكتاف الجنسين ؛ فكانت النساء يرتدن كل ميدان من ميادين الحياة ؛ وتجرد الرجال من خشونتهم وغلظتهم ، ورقت آدابهم وألفاظهم ، وخطت الحضارة رغم تحللها وعنفها نحو الرشاقة والرقه خطوات لم تشهد أوربا مثلها مدى ألف عام .

الفصل السادس

المنزل

وتبدت الرقة المطردة الزيادة فى شكل البيت وفى الحياة المنزلية . لقد ظلت مساكن الشعب كما كانت من قبل — ذات جدران مغطاة بالملاط أو الجص مطلية بالجير ، عارية عن الزينة ، وأرض مغطاة بالبلاط ، وفناء داخلى به فى العادة بئر ، ويحيط بالفناء طبقة أو طبقتان من الغرف مزودتان بأبسط لوازم الحياة . أما قصور العظماء والأغنياء الحديثى الثراء فكانت روعة وترف تذكر الإنسان مرة أخرى بقصور رومة الإمبراطورية . ذلك أن الثروة التى كانت محبوسة من قبل على الكتدرائيات قد صبت الآن صباً على القصور فجاءتها بالأثاث ، ووسائل النعيم والمتعة ، والزينة التى قلما نجدها إذا تخطينا جبال الألب فى قصور الأمراء والملوك : فهاهو ذا بيت تشيجى الريفى ، وقصر مسيمى Massimi اللذان خططهما بلدسارى پروتسى Baldassare Peruzzi يحتوى كل منهما على متاهة من الغرف تزدان كل واحدة منها بالعمد الأسطوانية والمربوعة ، أو الأطناف المنقوشة ، أو السقف ذات اللوحات المذهبة ، أو القبة والجدران المصورة ، أو المصطلى المحلى بالتماثيل ، أو الصور المنحوتة فى الجص ، أو النقوش العربية ، أو الأرضية المصنوعة من الرخام أو القرميد : وكان فى كل قصر سرر ، ونضد ، وصناديق ، وأصونة صنعت لتعيش مائة عام وتسر الناظرين : وكانت خزائن أدوات المائدة أو نضدها مثقلة بالصحاف الفضية والأوانى الخزفية الجميلة الأشكال ، وكان فى القصر فرش وثيرة مريحة ، وطنافس جميلة ، وستر بديعة ، وكثير من الملابس الداخلية المتينة الصنع المعطرة . وكانت مدافئ عظيمة تدفئ الحجرات ، والمصابيح أو المشاعل ، أو القناديل

تثيرها . ولم يكن شيء ما ينقص هذه القصور غير الأطفال .

ذلك أن تحديد النسل يكثر كلما كثر المال اللازم لإعالة الأطفال ، وكانت الكنيسة والكتب المقدسة تأمر بزيادة النسل ومضاعفة عدد الأبناء ، ولكن الرغبة فى التنعم كانت تشير بالإقلال منهم ؛ وحتى فى الريف حيث يكون الأطفال مصدر ثراء كانت الأسر التى بها ستة أبناء نادرة الوجود ، وفى المدن حيث يكون الأطفال عبئاً على الآباء كانت الأسر صغيرة العدد — وكلما زاد ثراء الأسرة قل عدد أفرادها — وكثير من الأسر لم يكن فيها أبناء على الإطلاق(٦٤) . غير أن الأسر الإيطالية كان فى مقدورها أن تنجب أطفالا ظرفاء كما نتبين ذلك من صور الأطفال التى رسمها الفنانون ومن رسوم دوناتلو ولوكا دلا ربيا Luca della Robbla ، والتماثيل المنحوتة كتمثال « القديس يوحنا الشاب » الذى نحته أنطونيو رسيلينو والمحفوظ فى المتحف الأهلى بواشنجتن . وإن تضامن الأسرة ، والولاء والحب المتبادلين بين الآباء والأطفال ليزيدهما رونقاً وجمالا ما كان سائداً فى ذلك الوقت من انحلال فى الأخلاق .

وكانت الأسرة لا تزال وحدة اقتصادية ، أخلاقية ، جغرافية ، اذا عجز أحد أعضائها عن الوفاء بما عليه من دين وفى به سائر الأعضاء ، وتلك ظاهرة تخالف ما اتسم به ذلك العصر من نزعة فردية . وقلما كان عضو يتزوج أو يترك البلاد دون موافقة أسرته ، وكان الخدم أعضاء فى الأسرة أحراراً بمولدهم ، صريحين فى حديثهم . وكان للوالد على الأبناء سلطان كامل ، وأمره مطاع فى الأزمات ، ولكن الأم كانت هى التى تحكم المنزل فى العادة ، ولم يكن حب الأم أبناءها يختلف عند الفقيرات عنه لدى الأميرات ، انظر إلى ما كتبته بيتريس دست عن ولدها الصغير إلى أختها إزبلا : « كثيراً ما تمنيت أن تكونى هنا لتشاهديه بعينيك ، فلو أنك كنت هنا لما خالجنى أقل شك فى أنك لن تستطيعى أن تحاجزى نفسك عن تقبيله وتدليله »(٦٥)

وكانت معظم الأسر من الطبقة الوسطى تحتفظ بسجل يحوى تواريخ ميلاد أعضائها ، وزواجهم ، وموتهم ، والحوادث الهامة فى حياتهم تتخللها فى بعض المواضع تعليقات ناطقة بالحب والمودة . فقد كتب چيوڤنى روتشيلى Giovanni Rucelli (أحد أسلاف الكاتب المسرحى صاحب هذا الاسم نفسه) هذه العبارة فى أواخر أيامه فى سجل من هذا النوع لأسرته :

« أحمد الله الذى خلقنى إنساناً عاقلا مخلداً ؛ فى بلد مسيحى ؛ قريب من رومة ، مركز العقيدة المسيحية ؛ وفى إيطاليا أشرف بلاد العالم المسيحى ؛ وفى فلورنس أجمل مدائن العالم كله . . . . أحمد الله الذى جعل لى أمًّا ممتازة ، رفضت بعد موت أبى كل عروض الزواج مع أنها لم تكن تجاوزت سن العشرين عند وفاته ، وكرست حياتها كلها للعناية بأبنائها ؛ كما رزقنى أيضاً زوجة صالحة ، حبتنى حباً صادقاً ، ووجهت أعظم عنايتها لبيتها وأبنائها ، أبقاها الله لى كثيراً من السنين ، وكان موتها أفدح خسارة أصابتنى أو يمكن أن تصيبنى طوال حياتى . فإذا ما تذكرت جميع هذه النعم والمزايا ، فإنى الآن وأنا فى سن الشيخوخة أحب أن أتجرد من جميع المنافع الدنيوية لكى أتوجه بروحى كلها إلى التسبيح بحمدك يا الله والثناء عليك يا حى يا قيوم يا من وهبتنى الحياة[٦٦] » .

وكتب رجلان ، أو لعلهما رجل واحد ، حوالى عام ١٤٣٦ رسالتين عن الأسرة وطريقة حكمها . لقد كان أنيولو بندلفينى Anolo Pandolfini فى أغلب الظن صاحب الرسالة الفصيحة المسماة **رسالة فى حكم الأسرة** Trattato del governo della famiglia ؛ وكتب ليون باتستا ألبيرتى Leon Baltista Alberti بعده بقليل **رسالة فى الأسرة** Trattato della famiglia ، يشبه الكتاب الثالث من كتبها « **الاقتصاد** Economieo » أعظم الشبه الرسالة السابقة حتى لقد ظن بعضهم أن الكتابين ليسا إلا صورتين

مختلفتين لرسالة واحدة من قلم ألبرتى. وليس ببعيد أن تكون نسبة كل واحدة منهما لصاحبها صحيحة ، وأن ما بينهما من تشابه كبير يرجع إلى أن كلا المؤلفين قد اعتمد فى رسالته على كتاب اكسنوفون Xenophon فى الاقتصاد Ocenomicus ورسالة بندلفينى أحسن الرسالتين . وكان صاحبها رجلا ثرياً شبيهاً فى هذا بآل روتشلاى ؛ وقد خدم فلورنس فى مناصب دبلوماسية ، وكان سخياً فى هباته للمشروعات العامة . وقد كتب رسالته فى أواخر حياته . الطويلة ووضعها فى صورة حوار بينه وبين أبنائه الثلاثة : فهم يسألونه هل يسعون إلى المناصب العامة ؛ ولكنه يشير عليهم بالابتعاد عنها ، لأنها تتطلب أعمالا تتصف بالخيانة والقسوة ، والسرقة ، وتعرض صاحبها لارتياب الناس ، وحسدهم ، وتوجيه السباب له . ويقول لهم إن نجاح المرء فى نيل السعادة لايقف على نيل المناصب العامة أو الشهرة الواسعة ، بل إن سعادته تعتمد على زوجته ، وأبنائه ، ونجاحه الاقتصادى ، وسمعته الطيبة ، وأصدقائه الأوفياء . وينبغى للمرء أن يتخذله زوجة تنقص عنه فى السن إلى درجة تجعلها خاضعة لتعاليمه قابلة لأن يشكلها على هواه ؛ وعليه أن يعلمها ، فى السنين الأولى من زواجهما ، واجبات الأمومة ، وفنون تدبير المنزل . والحياة الهنيئة مصدرها الاقتصاد والنظام فى العناية بصحة الجسم والعقل ، وحسن استخدام المواهب ، والوقت ، والمال : فأما العناية بالصحة فتكون بالتعفف ، والرياضة ، والاعتدال فى الطعام ؛ وأما حسن استخدام المواهب فوسيلته الدرس ، والتخلق بالأخلاق الشريفة باتباع أوامر الدين وبالقدوة الصالحة ؛ والانتفاع بالوقت يكون بتجنب البطالة ، والانتفاع بالمال يكون بحسن تدبير الدخل ، والنفقات ، والادخار والعمل على توازن هذه العوامل الثلاثة . والرجل الحكيم يستثمر ماله أولا فى مزرعة أو ضيعة يصرف شئونها بحيث تمده هو وأسرته بمسكن ريفى ، وبما يلزمه من القمح والنبيذ ، والزيت ، والطيور ، والخشب و بأكثر ما يستطيع الحصول عليه من ضرورات الحياة

الأخرى . ويحسن به كذلك أن يكون له بيت فى المدينة ، حتى يستطيع أبناؤه أن ينتفعوا بما فيها من وسائل التربية والتعليم . ويتعلموا بعض الفنون الصناعية(٦٧) . لكن من واجب الأسرة أن تقضى أكبر جزء تستطيعه من الوقت فى بيتها الريفى :

« ذلك أن للبيت الريفى مزايا عظيمة شريفة على حين أن كل ما للإنسان من ملك يتطلب من صاحبه العمل ويعرضه للخطر ، والخوف ، وخيبة الأمل . أما البيت الريفى فهو على الدوام صادق شفيق رحيم . . . . ففى الربيع تبعث الأشجار الخضراء ، ويبعث تغريد الطيور ، فى نفسك البهجة والأمل ، وفى الخريف يعود عليك الجهد المعتدل بثمرة تعادله مائة مرة ، وأنت طول العام أبعد ما تكون عن الحزن والكآبة . ذلك أن البيت الريفى هو البقعة التى يحب فيها الرجال الصالحون الأشراف أن يجتمعوا بعضهم ببعض . . . . فأسرع إذن إلى هناك ، وطر من كبرياء الأغنياء وخيانة أشرار الرجال(٦٨) » .

ويرد على هذا كاتب يسمى جيوڤنى كمپانو Giovanni Compano بالنيابة عن ملايين الملايين من الفلاحين فيقول : « لو لم أكن من أبناء الريف ، لابتهجت من فورى بهذا الوصف للسعادة الريفية ؛ أما وأنا الريفى الزارع ، « فإن ما ترونه أنتم سبباً للبهجة ، أراه أنا باعثاً للملل والسآمة »(٦٩) .

الفصل السابع

الأخلاق العامة

لقد كان بندلفينى محقاً فى حكم واحد من أحكامه على الأقل — وهو أن الأخلاق المتصلة بالمعاملات التجارية وعند الجماهير بوجه عام كانت أكثر ما ينفر منه الإنسان فى حياة عصر النهضة — ذلك بأن النجاح ، لا الفضيلة ، فى ذلك الوقت كان هو الميزان الذى توزن به أقدار الرجال وحتى بندلفينو التى المستقيم نفسه يدعو الله أن يرزقه الثراء لا السمعة الخالدة . لقد كان الناس فى ذلك الوقت كما هم الآن يجرون وراء المال ، ولا يؤنبهم ضميرهم كثيراً بسبب ما يتبعونه من الوسائل لجمعه . فكان الملوك والأمراء يغدرون بحلفائهم ، وينكثون أقوى عهودهم إذا لاح لهم بريق الذهب . ولم يكن رجال الفن أحسن حالا من الملوك والأمراء ! فكثيرون منهم تناولوا مقدم أجور عن أعمال عجزوا عن إتمامها أو عند البدء فيها ، ولكنهم احتفظوا مع ذلك بما قبضوا من أجور ، وكان بلاط البابا نفسه مضرب المثل فى هذا الجشع المالى . ولنستمع مرة أخرى إلى أعظم مؤرخ للبابوية .

« لقد استشرى الفساد ومد جذوره فى جميع مناحى الإدارة البابوية . . . وخرج عدد الهبات التى تنصبُّ فيها صباً والقروض التى تغتصبها اغتصاباً عن كل حد . . . يضاف إلى ذلك أن العقود كانت تتداول وتزور بأيدى الموظفين أنفسهم ، فلا عجب والحالة هذه إذا ارتفعت من جميع أنحاء العالم المسيحى أعلى الصيحات بالشكوى من هذا الفساد وذلك الاغتصاب المالى الذى يقوم به موظفو الإدارة البابوية ، حتى لقد قيل إن لكل شىء فى روما ثمنه »(٧٠) .

وكانت الكنيسة لا تزال تحرم أخذ الفائدة على الأموال وتعدها بجميع

أنواعها من قبيل الربا ، وكان الواعظون يندون بهذا العمل ، وحرمته أحياناً بعض المدن — مثل پياتشندسا — وأنذرت من يمارسه بالحرمان من القربان المقدس ومن الدفنة المسيحية عند مماته . ولكن إقراض المال بالفائدة ظل يجرى فى مجراه ، لأن هذه القروض لم يكن منها بد فى الأعمال الاقتصادية ، التجارية والصناعية ، الآخذة فى الاتساع . وسنت القوانين تحرم أن يزيد سعر الفائدة على عشرين فى المائة ، ولكننا مع ذلك نسمع عن حالات بلغ فيها هذا السعر ثلاثين فى المائة . وكان المسيحيون ينافسون اليهود فى عقد القروض ، حتى لقد شكا مجلس شيوخ البلدى من أن المسيحيين يفرضون على المدينين شروطاً أقسى مما يفرضه اليهود(٧١) . غير أن غضب الشعب قد حل أشده على اليهود ، وكثيراً ما أدى إلى أعمال العنف الموجهة إلى السامين . وواجه الرهبان الفرنسيس هذه المشكلة وحاولوا تخفيف العبء عن أشد المدينين بؤساً بإنشاء أرصدة الإحسان (mɔmnti di pieta) ومعناها الحرفى (أكوام الإحسان) جمعوها من الهبات والوصايا ليقرضوا منها المحتاجين ؛ وكانوا فى أول الأمر يقرضونهم بغير فائدة . وكان أول رصيد من هذا النوع هو الذى أنشئ فى أرڤينو عام ١٤٦٣ ؛ ولم تلبث كل مدينة كبيرة أن حذت حذوها ؛ وتطلب ازدياد مقدار هذه الأرصدة تخصيص بعض المال لإدارتها والإشراف عليها ؛ فما كان من مجلس لاتران الخامس الذى عقد فى عام ١٥١٥ إلا أن منح الرهبان الفرنسيس الحق فى أن يفرضوا على كل قرض ما يكفى من المال لتغطية نفقات الإدارة والإشراف . وسار بعض رجال الدين فى القرن السادس عشر على هذه السنة نفسها فأجازوا أخذ فائدة معتدلة على القروض(٧٢) . ثم أخذ سعر الفائدة ينخفض انخفاضاً سريعاً فى القرن السادس عشر بفضل منافسة أرصدة الإحسان ، وأكثر من هذا فى أغلب الظن بفضل ازدياد مهارة رجال المصارف المحترفين ومنافستهم للأفراد المقرضين .

وازداد النظام الصناعىّ قوة باتساع مداه وباختفاء العلاقة الشخصية بين العامل وصاحب العمل . ذلك أن رقيق الأرض فى نظام الإقطاع كان يستمتع ببعض الحقوق فى مقابل ما يفرض عليه من الأعباء ، فقد كان ينتظر من سيده أن يعنى به إذا مرض ، أو حلت بالبلاد أزمة اقتصادية ، أو شبت فيها نار حرب ، أو بلغ سن الشيخوخة . وكانت نقابات الحرف فى المدن الإيطالية تؤدى بعض هذه الواجبات للطبقة العليا من العمال ، ولكن العامل « الحر » كان فى العادة « حراً » فى أن يموت جوعاً حين لا يجد عملا يقتات منه ، فإذا وجده كان لا بد له أن يقبله بالشروط التى يفرضها عليه صاحب العمل نفسه ، وما كان أقسى هذه الشروط . وكان كل اختراع وكل تحسين فى وسائل الإنتاج وفى الأنظمة المالية يزيد من أرباح صاحب العمل ، وقلما كان يزيد الأجور . وكان رجال الأعمال يقسو بعضهم على بعض بقدر ما يقسون على عمالهم : فنحن نسمع عن كثير من الحيل التى كانوا يلجئون إليها فى تنافسهم ، وعن عقودهم الخادعة ؛ وعن وثائقهم المزورة التى يخطئها الحصر(٧٣) . فإذا ما تعاونوا كان تعاونهم يهدف لخراب بيوت منافسيهم فى بلد غير بلدهم . بيد أننا نجد أحياناً أمثلة دالة على الإحساس بواجب الشرف بين كثيرين من التجار الإيطاليين ، واشتهر رجال المال فى إيطاليا بالأمانة والاستقامة فى المعاملة أكثر مما اشتهربهما أمثالهم فى أوربا(٧٤) .

وكانت الأخلاق الاجتماعية مزيجاً من العنف والعفة . وإنا لنجد فى الرسائل التى كانت تتبادل بين الأفراد فى ذلك الوقت شواهد كثيرة على ما كانوا يتصفون به من الرقة والحنان ؛ ولم يكن الإيطاليون العاديون يضارعون الأسبان فى شراستهم أو الجنود الإيطاليين فى إقدامهم على ذبح أعدائهم جماعات . ولكن ما من أمة فى أوربا كان فيها من الاغتياب ونهش الأعراض مثل ما كان يدور حول جميع الرجال البارزين فى رومة ؛ وهل يستطيع أحد غير الإيطاليين فى عهد النهضة أن يصف أريتينو بأنه من أولياء

الله الصالحين ؟ . وانتشر العنف بين الأفراد انتشاراً واسع النطاق . وكان من أسباب قوة النزاع بين الأسر زوال العادات القديمة والعقيدة الدينية ، والتراخى فى أخذ الناس بالقانون ، ولهذا كان الناس يثأرون لأنفسهم بأنفسهم ، وظلت الأسر يقتل بعضها بعضاً جيلا بعد جيل ، كما ظل التبارز عادة مألوفة مشروعة فى إيطاليا لا يقف حتى يقتل أحد المتبارزين نده ، وحتى الأولاد الصغار كان يسمح لهم بأن يقاتل بعضهم بعضا بالمدى ، ويعد هذا أيضاً من الأعمال المشروعة(٧٥) . وكان النزاع بين الأحزاب أشد منه فى أى مكان آخر فى أوربا ، وكانت الجرائم وأعمال العنف بخطئها الحصر . وكان من المستطاع ابتياع السفاحين بأثمان لا تكاد تزيد على أثمان صكوك الغفران ، وكانت قصور رومة تزدحم بأولئك السفاحين المستعدين لاغتيال أى إنسان بإشارة من سادتهم . وكان كل إنسان يحمل خنجراً ، وكان عاجنو السموم يجدون كثيرين من طالبى سمومهم ، حتى بلغ الأمر أن أهل رومة قلما كانوا يعتقدون أن إنساناً ذا شخصية بارزة أو مال موفور مات ميتة طبيعية .. وكان كل ذى شخصية يطلب أن يذوق شخص آخر بين يديه كل ما يقدم له من طعام أو شراب . وانتشرت فى رومة قصص عن سم بطىء لا يسرى مفعوله إلا بعد فترة طويلة تكفى لستر آثار من يقدمه . وكان على الإنسان أن يكون يقظاً محاذراً فى تلك الأيام ؛ فإذا غادر المنزل فى ليلة من الليالى ، فقد ينصب له كمين ويسرق ماله ، ويكون من حسن حظه ألا يلقى حتفه ؛ وحتى فى الكنيسة نفسها لم يكن الشخص آمناً على نفسه ، وكان عليه إذا سار فى الطرق العامة أن يستعد لمقاومة قطاع الطرق . ولهذا كان من الواجب أن يصير عقل رجل النهضة حاداً كحدة نصل السفاح .

وكانت القسوة أحياناً قسوة جماعية تسرى عدواها فى الأفراد والجماعات . مثال ذلك أن فتنة اندلع لهيبها فى أرتسو عام ١٥٠٢ ضد أحد المندوبين الفلورنسيين ، فقتل فيها مئات من أرتسو فى شوارعها محيت فيها أسر

بأكملها ، وجرد أحد الضحايا من ثيابه وشنق ووضعت شعلة متقدة بين عجيزتيه ؛ فما كان من الجماهير المرحة المبتهجة إلا أن أطلقت عليه اسم الملوط(٧٦) . وانتشرت قصص العنف ، والقسوة ، والشهوات انتشار الخرافات ؛ حتى لقد كان بلاط فيرارا الذى يزدان بالشعر والأدب تروعه جرائم الأمراء وما يوقعه الملوك من ضروب العقاب . وكان تحلل الحكام المستبدين أمثال آل قسكنتى ومالاتسنا أنموذجاً ينسج على منواله ذوو العنف الهواة من أفراد الشعب ، وحافزاً لهم على تقليده .

وتدهورت المبادئ الأخلاقية الحربية على مر الزمن . فقد كانت المعارك كلها تقريباً فى بواكير عهد النهضة لا تزيد على اشتباكات غير ذات بال بين جنود مرتزقة يحاربون فى غير عنف شديد ، ويعرفون متى يقفون القتال ، وكان النصر ينال إذا ما سقط فى حومة الوغى عدد قليل من الرجال ، وكان السجين الحى الذى يستطاع فداؤه أعظم قيمة من العدو الميت . ولما ازدادت قيمة الزعماء المغامرين المأجورين ، وكبرت الجيوش وتطلبت نفقات ضخمة ، سمح للجنود بأن ينهبوا المدن المفتوحة بدل أن تؤدى إليهم أجور منتظمة ؛ وكانت مقاومة التهب تؤدى إلى المذابح التى يهلك فيها العدد الجم من السكان ؛ وكانت وحشية الجنود الفاتحين تزداد حينما يشمون رائحة الدم المسفوك . ومع هذا كله فقد كانت قسوة الإيطاليين فى الحرب أقل من قسوة الغزاة الأسبان والفرنسيين . مثال ذلك أنه حين استولى الفرنسيون على كابوا فى عام ١٥٠١ أوقعوا بأهلها مذبحة ، شنيعة سقط كثير من النساء حتى اللاتى كرسن أنفسهن لعبادة الله . . . ضحية لشهواتهم أو شرهم ، وبيع كثير من أولئك المخلوقات البائسات فى رومة بعدئذ بأبخس الأثمان »(٧٧) كما يقول جوتشياردينى . وغير خاف أنهن بعن للمسيحيين . وزاد استرقاق أسرى الحرب كلما تقدمت أساليبها فى عصر النهضة .

ولسنا ننكر أنه كان ثمة أمثلة من الولاء الجميل بين الإنسان والإنسان ،

بين المواطن والدولة ؛ ولكن ازدياد المقدرة على المكر والدهاء زاد من قدر الغش والخداع . فكان القواد يبيعون أنفسهم لمن يؤدى إليهم أعظم الأثمان ، فإذا ما احتدم القتال أخذوا يفاوضون العدو للحصول على أثمان أكبر من التى اشتروا بها . كذلك كانت الحكومات تبدل موقعها فى أثناء الحرب فيصبح الحلفاء أعداء بجرة قلم . وكان الأمراء والبابوات يغدرون بمن أمنوهم على أنفسهم من القادمين إلى بلادهم والخارجين منهـا(٧٨) ؛ والحكومات توافق على اغتيال أعدائها سراً فى الدول الأخرى(٧٩) . وكان الخونة يوجدون فى كل مدينة وفى كل معسكر : ومن أمثلة هؤلاء بيرنر دينو دل كورتى Bernardino del Corte الذى باع قلعة لدفيكو لفرنسا ؛ والسويسريون والإيطاليون الذين غدروا بلدفيكو وباعوه للفرنسيين ؛ وفرانتشيسكو ماريا دلا روفيرى الذى منع جنوده من أن يخفوا لتجدة البابا فى عام ١٥١٧ ، ومالاتستا بجليونى الذى باع فلورنس فى عام ١٥٣٠ . . . ولما ضعفت العقيدة الدينية حلت محل فكرة الحق والباطل فى كثير من العقول فكرة النافع وغير النافع من الوجهة العملية ؛ وإذا كانت الحكومات فى العادة قصيرة الأجل لا تصبح ذات سلطان شرعى بطول الزمن ، فقد ضعفت عند الناس عادة إطاعة القانون ، وكان لابد من أن تحل القوة فى هذا محل العادة ؛ ولم يكن ثمة طريق للخلاص من استبداد الحكومات إلا قتل المستبدين .

وعم الفساد كل فرع من فروع الإدارات الحكومية . ففى سينا مثلاً كان لابد من وضع الإدارة المالية فى آخر الأمر فى أيدى راهب اشتهر بالتقى والورع لأن كل إنسان آخر قد اختلس مال المدينة . وساءت سمعة المحاكم كلها عدا محاكم البندقية لكثرة ما كان فيها من الفساد والرشوة . وتروى قصة من قصص ساكشتى Sacchetti أن قاضياً ارتشى بثور ولكن خصم الراشى بعث إلى هذا القاضى نفسه بقرة وعجلا فحكم

لصالحه(٨٠) . وكان التقاضى كثير النفقة ، ولهذا اضطر الفقراء إلى الاستغناء عنه ، ووجدوا أن قتل الخصم أرخص من مقاضاته . وكان القانون نفسه آخذاً فى الرقى ولكن رقيه كان مقصوراً على الناحية النظرية . وقد أنجبت بدوا ، ويولونيا ، وپيزا ، وپيروچيا كثيرين من فقهاء القانون أمثال تشينو دا پستويا Cino da Pistoia ، وبرتولوس من أهل ساسوفيراتو Bartolus of Sassoferrato ، وبلدو دجلى أوبلدى Boldo degli Ubalbi الذى طل شرحه للقانون الرومانى أكبر مرجع فى فقه القانون قرنين كاملين . وكان القانون البحرى والتجارى يتسع نطاقه باتساع نطاق التجارة الخارجية ؛ ومهد چيوڤنى دا لنيانو السبيل لجروتيوس برسالته عن الحرب Tractatus de Bello (١٣٦٠) ، وهى أقدم كتاب معروف عن قوانينها .

لكن تطبيق القانون لم يبلغ من السمو مبلغ نظريته ، ذلك أن نظام الشرطة لم يجار فى تقدمه سير الجرائم ، وإن كانت مهمته فى حماية الأنفس والأموال قد أخذت تظهر وتتشكل وخاصة فى فلورنس . وكثر المحامون ، وظل التعذيب يستخدم فى استجواب الشهود والمتهمين . وكانت العقوبات قاسية همجية . ففى بولونيا مثلا كان يمكن تعليق المذنب فى قفص من أحد الأبراج المائلة ، ويترك حتى يتقرح جسده فى الشمس(٨١) ، وفى سينا كان الرجل المحكوم عليه يمزق إرباً على مهل فى شوارع المدينة(٨٢) ؛ وفى ميلان أثناء حكم چيوڤنى فسكونتى مضيف پترارك كان المسجونون تبتر أطرافهم طرفاً بعد طرف(٨٣) ؛ وبدأت فى أوائل القرن السادس عشر عاد الحكم على المساجين بجذب المجاذيف الثقيلة التى كانت تزود بها السفن ، مشاهد ذلك أن سفائن يوليوس الثانى كانت تحمل على ظهورها أرقاء مشدودين إليها من أرجلهم(٨٤) .

على أننا نستطيع أن نذكر فى مقابل هذه الأعمال الهمجية تطور الإحسان المنظم ورقيه ، فقد كان كل من يترك وصية يفرد جزءاً من ماله ليوزع

على الفقراء من أهل الأبرشية التى يعيش فيها . وإذ كان المتسولون لا يحصى لهم عدد ، فإن بعض الكنائس كانت تقيم ما يشبه مطاعم الشعب الحديثة ، وجرياً على هذه السنة كانت كنيسة القديسة مارية (سانتا ماريا) فى كامپو سانتو برومة ، تطعم ثلاثة عشر متسولا فى كل يوم وألفى متسول فى أيام الإثنين والجمعة(٨٥) ، وكانت المستشفيات العامة ، ومستشفيات المجذومين ؛ وملاجئ المرضى الميئوس من شفائهم ، والفقراء ، واليتامى ، والحجاج المعدمين ، والعاهرات التائبات ، كانت هذه كلها كثيرة العدد فى إيطاليا إبان عصر النهضة . واشتهرت پستويا وفيتربو باتساع نطاق مؤسساتها الخيرية ، وفى مانتوا أنشأ لدوفيكو جندساجا المستشفى الكبير Ospedale Maggiore للعناية بالفقراء والعجزة ، وخصه بثلاثة آلاف دوقة كل عام من الأموال الحكومية(٨٦) . وأنشئت فى البندقية جمعية عرفت باسم جمعية الپليجريني Pellegrini من أعضائها تيشيان وابنى سانسوڤينى Sansovini لتقديم المعونة المتبادلة لأعضائها والبائنات للبنات الفقيرات ، إلى غير هذه وتلك من أعمال البر . وكان فى فلورنس فى عام ١٥٠٠ ثلاث وسبعون منظمة مدنية تقوم بأعمال الإحسان . وتأسست فى عام ١٢٤٤ جمعية الإخوان البائسين Fraternita della Mesericordtia ، ولكنها أهملت حتى ماتت ، ثم أعيدت فى عام ١٤٧٥ ؛ وكان أعضاؤها من غير رجال الدين الذين أخذوا على أنفسهم أن يزوروا المرضى ، ويقوموا بأعمال البر الأخرى ، واستمالوا إليهم قلوب الشعب بإقدامهم بشجاعة على العناية بضحايا الطاعون ؛ ولا تزال مواكبهم الصامتة التى يسيرون فيها بأثوابهم السود من أعظم المناظر رهبة وتأثيراً فى المشاعر فى فلورنس(٨٧) . وكان فى البندقية جماعة من هذا النوع تدعى إخوة سان روكو Confraternita di San Rocco ؛ وأنشئت فى رومة جماعة الإخوة المحزونين Sodality ol the Doloros

التى تبلغ الآن من العمر خمسمائة عام وأربعة أعوام ، وأسس الكردنال جوليو ده ميديتشى فى عام ١٥١٩ جماعة أخوة الصداقه **Confraternita** della Carita للعناية بالفقراء الذين هم أعلى من طبقة المتسولين ؛ ولتقوم بدفن المعدمين دفنة كريمة . هذا إلى أن الصدقات الفردية التى كان يقدمها ملايين الأفراد ممن لم تعرف أسماؤهم كانت تخفف بعض الشىء من كفاح الإنسان لأخيه الإنسان ، ومن صراعه مع الطبيعة و الموت .

opeikandl.com

الفصل الثامن

العادات العامة ووسائل التسلية

بين العنف وعدم الأمانة ، والحياة الصاخبة التى كان يحياها طلبة الجامعات ، والفكاهة الخشنة والحنان اللذين يتصف بهما الفلاحون والعمال ؛ بين هذا كله نشأت الآداب العامة الطيبة كأنها فن آخر من فنون النهضة ، فتزعمت إيطاليا وقتئذ أوربا كلها فى قواعد الصحة الشخصية والاجتماعية ، والثياب ، وآداب المائدة وطهو الطعام ، وآداب الحديث ، والرياضة البدنية . وكانت فلورنس تدعى أنها هى التى تتزعم إيطاليا فى هذا كله عدا الملابس . وكانت تدفعها روحها الوطنية لأن ترثى لما فى المدن الأخرى من قذارة ، كما كان الإيطاليون يتخذون لفظ « ألمانى » مرادفاً للخشونة فى اللغة والحياة(٨٨) . واحتفظت الطبقات المتعلمة فى إيطاليا بالعادة الرومانية القديمة عادة الاستحمام الكثير ، وكان أثرياء القوم يتباهون بأثوابهم الجميلة ويؤمون الأماكن ذات المياه المعدنية ، ويشربون المياه الكبريتية يطهرون بها بطونهم فى كل عام مما أفرطوا فيه من الطعام والشراب . ولم تكن ملابس الرجال أقل زينة من ملابس السيدات ولا تنقص عنها إلا الحلى ، وكانت لهم أكمام ضيقة ، وجوارب ملونة ، وقبعات كبيرة كالتى شاهدها رفائيل على كستجليونى . وكان الجورب يغطى الساق كلها حتى آخر الفخذ فيجعل الرجال يقفزون فى مشيهم قفزاً يدعو إلى السخرية . أما فى الجزء الأعلى من الجسم فقد كان فى وسع الرجل أن يكون حسن الهندام ، فقد كان يرتدى صدرة من المخمل موشاة بالحرير ومزدانة بالمخرمات . (الدنتلا) ، ولم تكن القفازات والأحذية نفسها تنقصها هذه المخرمات . وباحدث فى مهرجان للبرجاس ...

obeikandl.com

لورندسو ده ميديتشى أن ارتدى أخوه جوليانو أثواباً كلفته ثمانية آلاف دوقة(٨٩) .

وحدث فى القرن الخامس عشر انقلاب تام فى آداب المائدة حين ازداد استعمال الشوكة بدل الأصابع فى تناول الطعام ونقله إلى الفم . ولشد ما دهش توماس كريات Thomas Coryat حين زار إيطاليا حوالى عام ١٦٠٠ من هذه العادة الجديدة التى لم يتعودها الناس فى أى بلد آخر رأيته فى أسفارى » على حد قوله ، وقد ساعد بنفسه على إدخال هذه العادة فى إنجلترا(٩٠) . وكانت السكاكين ، والشوك ، والملاعق تصنع من النحاس الأصفر ، ومن الفضة فى بعض الأحيان — فإذا كانت من الفضة أعيرت للجيران حين يقيمون المآدب . أما الطعام فقد كان طعاماً وسطاً إلا فى المناسبات الهامة أو المآدب التى تقيمها الدولة فى المناسبات الرسمية ، فقد كان التغالى فيها أمراً واجباً إجبارياً . وكانت التوابل — كالفلفل ، والقرنفل ، وجوزة الطيب ، والقرفة ، والعرعر والزنجبيل وما إليها — تستخدم بكثرة لزيادة نكهة الطعام وزيادة الظمأ إلى الشراب ؛ ولهذا كان كل مضيف يقدم لضيوفه أنواعاً مختلفة من الخمور . وفى وسعنا أن نرجع شيوع الثوم فى إيطاليا إلى عام ١٥٤٨ ، ولكن الذى لا شك فيه أن استعماله بدأ قبل ذلك بوقت طويل . وقلما كان يؤخذ على القوم نهم أو شراهة فى الطعام والشراب ؛ ذلك أن الإيطاليين فى عهد النهضة كانوا كالفرنسيين فى العهود المتأخرة خبيرين بالأطعمة والأشربة لا نهمين فيها . وإذا ما تناول الرجال طعامهم بمعزل عن النساء كانوا يدعون معهم بعض المحاظى — واحدة أو اثنتين — كما فعل أريتينو حين عزم تيشيان . أما من هم أكثر احتشاماً فقد كانوا يجملون وجبات الطعام بالموسيقى ، وارتجال الشعر ، والحديث المثقف الدال على حسن التربية .

وقد اخترع فن الحديث — الحديث الجميل — الحديث الذى ينم على

الذكاء ، والأدب ، والتهذيب ، والمتسم بالوضوح ، وروح الفكاهة — اخترع هذا الفن من جديد فى عهد النهضة . وكانت بلاد النوبة القديمة ، ورومة قد عرفتا هذا الفن من قبل ، وظل حياً يتعثر فى العصور الوسطى فى أماكن متفرقة من إيطاليا كبلاط فردريك الثانى وإنوسنت الثالث مثلا . ثم ازدهر الآن مرة أخرى فى فلورنس فى أيام لورندسو ، وفى أربينو على عهد اليزابتا ، وفى رومة أيام ليو : فكان النبلاء وزوجاتهم ، والشعراء والفلاسفة ، وقواد الجيوش والعلماء ، والفنانون والموسيقيون « يجتمعون فى رفقة العقول ، يتناقلون أقوال أشهر المؤلفين ، ويظهرون فى بعض الأحيان احترامهم وطاعتهم لأوامر الدين ، ويجملون حذلقتهم بلمسة خفيفة من الخيال العجيب ، ويستمتعون بالإصغاء بعضهم إلى بعض . وقد بلغ من إعجاب القوم بهذه الأحاديث أن صاغوا كثيراً من المقالات والرسائل فى لغة الحوار حتى تستطيع استيعاب هذا الضرب من التظرف . لكنهم أفرطوا فى هذا آخر الأمر حتى أضحت اللغة والأفكار مسرفة فى الرقة والأناقة ، وحتى أوهن الولع بهذه الرقة مقتضيات الرجولة ، وأضحت أربينو فى إيطاليا كما كانت رامبوييه Rambouillet فى فرنسا ، وحتى قام موليير يهاجم « الضحك النفيس » فى وقت استطاع فيه أن ينجى فن الحديث الطيب ويحتفظ به لفرنسا .

وقد احتفظ الحديث الإيطالى — رغم التأنق الذى كان طابع القليل منه — بحرية فى موضوعه وألفاظه إلى قدر لا تجيزه الآداب الاجتماعية فى هذه الأيام . وإذ كانت النساء غير المتزوجات ذوات السمعة الطيبة قلما يستمعن إلى الحديث العام ، فقد كان المفروض أن يناقش الرجال المسائل الجنسية بكثير من الصراحة . لكن الأمر لم يقتصر على هذا ؛ ففى أرقى مجامع الرجال ، كنت ترى الفكاهات الجنسية المجردة من الاحتشام ، والتحرر المرح فى الشعر ، والبذاءة الفظة فى التمثيل ، وكل هذه تبدو لنا الآن من المظاهر التى تشمئز

منها النفس فى عصر النهضة . ولم يكن الرجال المتعلمون يتورعون عن كتابة الشعر البذىء على التماثيل ، وقد كتب بمبو المهذب الرقيق فيما كتب يثنى على پريابوس Priapus(٩١) . وكان الشبان يتنافسون فى النطق بأفحش الألفاظ وأكثرها بذاءة ليبرهنوا بذلك على أنهم بلغوا الحلم . وكان الرجال على اختلاف طبقاتهم يسبون ويلعنون وكثيراً ما يتطرق سبابهم إلى أقدس الأسماء فى الدين المسيحى . ورغم هذا كله فإن عبارات المجاملة لم تكن فى وقت ما أكثر ازدهاراً مما كانت فى تلك الأيام ، كما لم تكن صيغ التخاطب أكثر ظرفاً ورشاقة . وكانت النساء يقبلن يد كل صديق حميم من الذكور حين يقابلنه أو يودعنه ، كما كان الرجال يقبلون أيدى النساء ؛ ولم تكن الهدايا تنقطع بين الصديق والصديق ، وبلغت الكياسة فى الأقوال والأفعال درجة خيل إلى أوربا الشمالية أنها لا تستطيع الوصول إليها ، وأضحت الكتب الإيطالية التى تعلم تلك الآداب هى النصوص المحببة التى تدرس فيما وراء جبال الألب .

ومثل ذلك يقال عن الكتب الإيطالية فى الرقص ، والمثاقفة ، وغيرها من ضروب الرياضة ، فقد كانت إيطاليا تتزعم العالم المسيحى فى الرياضة كما تتزعمه فى الحديث والبذاءة ، فكانت البنات يرقصن فى ليالى الصيف فى ميادين فلورنس ، وكانت أرشقهن قواماً وأبرعهن رقصاً تجاز بإكليل من الفضة ؛ وفى القرى كان الفتيان والفتيات يتراقصون على الخمائل وفى البيوت وفى حفلات الرقص الرسمية : كان النساء يرقصن مع النساء أو الرجال ، كما كان الرجال يراقصون الرجال أو النساء ؛ وكان الهدف فى كل حالة من الحالات هو الرشاقة . وانتشر رقص الباليه فى عهد النهضة بـ وأضيف شعر الحركات إلى غيره من الفنون .

وكان لعب الورق أكثر من الرقص انتشاراً ، فقد أضحى فى القرن الخامس عشر ولعاً تجن به جميع الطبقات ، حتى لقد أدمنه ليو العاشر نفسه ..

وكثيراً ما كان يتضمن المقامرة ؛ وحسبنا شاهداً على هذا أن نعيد ما سبقت الإشارة إليه وهو أن الكردنال رفائلو رياريو Rafaello Riario كسب ١٤٫٠٠٠ دوقة فى دورين لعبهما مع ابن إنوسنت الثامن . وكان الرجال يقامرون أيضاً بالنرد ، وكانوا أحياناً يغشُّون فى هذا اللعب بأن يضيفوا إلى النرد أثقالا تؤثر فى وضعه بعد رميه(٩٢) . وأولع القوم أيضاً أشد الولع بهذه اللعبة ؛ ولم تفلح القوانين فى تخفيف حدتها . وكم من أسرة نبيلة خرب الميسر بيتها فى البندقية ، حتى لقد حرم مجلس العشرة مرتين بيع ورق اللعب أو الكعوب وأهاب بالخدم أن يبلغوا عن أسيادهم الذين يخالفون أوامر التحريم(٩٣) . وكان نظام القرض الحسن الذى أنشأه سفنرولا عام ١٥٤٩ يطلب إلى المقترضين أن يتعهدوا بالامتناع عن الميسر إلى أن يوفوا بالقرض على أقل تقدير(٩٤) .

وكان الذين تعودوا الجلوس وقلة الحركة يقضون الوقت فى لعب الشطرنج ويقتنون مجموعات منه غالية الثمن ، مثال ذلك أن چياكومو لورندانا من أشراف البندقية كان له قطع من الشطرنج تقدر قيمتها بخمسة آلاف دوقة .

وكان للشبان ألعابهم الخاصة ، أغلبها فى الخلاء . فكان الفتى الإيطالى من أبناء الطبقات العليا يدرب على ركوب الخيل ، واستخدام السيف والرمح ، والطعن فى ألعاب البرجاس ؛ وكانت المدن تستعد لهذه المباريات فى بعض أيام الأعياد والعطلات بتسوير مكان فسيح فى أحد الميادين يسهل عادة أن تطل عليه النوافذ والشرفات التى تستطيع أن تنظر منها السيدات لتشجيع فرسانهن . وإذ لم يكن فى هذه المعارك ما يكفى من الجراح والقتل ، فقد أدخل بعض الشبان المتهورين فى الكاوسيوم الرومانية عام ١٣٣٢ مصارعة الثيران ، بحيث يصارع الثور رجلا واقفاً على قدميه وليس معه من السلاح إلا حربة . وقتل فى هذه المصارعة الأولى ثمانية عشر فارساً

كلهم من أبناء الأسر العريقة ، ولم يقتل من الثيران إلا أحد عشر ثوراً (٩٥) . وتكررت هذه المباريات فى رومة وسينا ، ولكنها لم تستهو الذوق الإيطالى فى يوم من الأيام ، وكان سباق الخيل أحب منها إلى الشعب ، وكان يثير حماسة أهل رومة وسينا وفلورنس على السواء . وتنتهى المباريات بصيد الحيوان والطير بالبزاة ، وسباق الجرى ، وسباق الزوارق ، والملاكمة ، وبها يحتفظ الإيطاليون بشجاعتهم أفراداً ؛ أما من حيث هم جماعة فقد كانوا يكلون أمر الدفاع عن مدنهم إلى الجنود الأجانب المرتزقين .

ويمكن القول بوجه عام إن الحياة كانت ممتعة مبهجة بالرغم مما فيها من كدح وأخطار ، ومما تتسم به من رهبة ومخاوف ، منها ما هو طبيعى ومنها ما هو وهمى وخرافى . وكان سكان المدن يستمتعون بالانتقال إلى الريف رجالا وركبانا ، وإلى ضفاف الأنهار وشواطئ البحار ؛ وكانوا يزرعون الأزهار ليزينوا بها بيوتهم وأنفسهم ، وينشئون إلى جوانب بيوتهم الريفية حدائق غناء ذات أشكال هندسية بديعة . وكانت الكنيسة سخية على الأهلين بأعيادها ، كما كانت الدولة تضيف إلى هذه الأعياد الدينية أعياداً مدنية . فكانت أعياد المياه تقام على بحيرات البندقية ومياهها الضحلة ، وعلى مياه نهر الأرنو فى البندقية ، ونهر منتشيو فى مانتوا ، وتشينو فى ميلان . وفى بعض الأيام الخاصة كانت مواكب فخمة تسير فى شوارع المدن مصحوبة بالمركبات والأعلام ، وضع الفنانون ذوو الشهرة العالمية تصميمها لنقابات الحرف . وكانت الفرق الموسيقية تعزف فى هذه المواكب ، والبنات الحسان يغنين ويرقصن ، وأعيان المدينة يسيرون فيها ؛ حتى إذا جن الليل أطلقت الألعاب النارية تشق أجواز الفضاء بأشكالها العجيبة وتختفى فى طبقات الجو العليا . وفى يوم سبت النور فى فلورنس يؤتى بثلاث قطع من الظران جىء بها من الضريح المقدس فى بيت المقدس لتوقد شريطاً يضىء شمعة تدفعها فوق سلك يمامة صناعية حتى تصل إلى الصورايخ الموضوعة فى عربة اتخذت

رمزاً للدولة فى الميدان أمام الكتدرائية فتشعلها . وفى يوم عيد الجسد الطاهر يقف الاستعراض ليستمع الموكب إلى أنشودة تغنيها جماعة من البنات والأولاد ، أو يشاهد حادثة من الحوادث التاريخية الواردة فى الكتاب المقدس أو الأساطير الوثنية ، تمثلها إحدى الهيئات . وإذا ما جاء عظيم فى زيارة للمدينة كان يستقبل بموكب تشترك فيه العربات على نمط موكب النصر الرومانى القديم الذى كان يستقبل به القائد المنتصر ، مثال ذلك أنه لما زار ليو العاشر فلورنس مدينته المحبوبة فى عام ١٥١٣ خرج أهل المدينة على بكرة أبيهم ليشاهدوا مركبة نصره التى زخرفها ورسم صورها بنتورمو Pontormo وهى تمر تحت أقواس عظيمة منصوبة فى شارع المدينة الرئيسى ، وسارت سبع عربات أخرى فى هذا الموكب يستقلها أفراد يمثلون سبعة أشخاص كبار فى التاريخ الرومانى ، وفى آخرها غلام عار مغطى بالذهب يرمز إلى حلول العصر الذهبى بمجىء ليو ؛ ولكن الغلام توفى بعد الموكب بقليل من تأثير الطلاء الذهبى (٩٦) .

وكان يحدث أحياناً أن ترمز مواكب العربات فى عيد المساخر بفلورنس إلى فكرة معينة مثل الفطنة ، أو الأمل ، أو الخوف ، أو الموت ؛ أو العناصر ، أو الرياح ، أو الفصول ؛ أو كانت تمثل أحياناً بطريقة الإشارات الصامتة قصة كقصة باريس أمير طروادة وهلين اليونانية ؛ أو باخوس وأدريانى ، مصحوبة بالأغانى التى تتناسب مع كل منظر من مناظرها . وقد كتب لورندسو أغنيته الذائعة الصيت الموجهة إلى الشباب والمرح لإحدى هذه « المقنعات » . وكان كل من فى المدينة — من الغلمان إلى الكرادلة — يلبس قناعاً ، ويلعب ألعاباً ، ويغازل ويتحرر من كل قيد تحرراً يثأر فيه لنفسه مقدماً من الصوم الكبير . وفى عام ١٥١٢ حين بدا أن فلورنس لا تزال تنعم بالرخاء ، ولكن الكوارث التى لم تكن تخطر بالبال تكن بعيدة عنها بأكثر من بضعة شهور ، أعد پيرو دى كوزيمو

Piero di Cosimo موكب « مقنعة لانتصارات الموت » ، سارت فيه عربة ضخمة تجرها جاموستان سوداوان وعليها غطاء أسود ر سمت عليه هياكل عظمية وصلبان بيض . ووقف فى العربة تمثال ضخم يمثل الموت يمسك بيده منجلا ، ومن حوله قبور وأشكال حزينة رسمت على أثوابها السود عظام بيض تبرق فى الظلام ، ومشت وراء العربة شخوص مقنعة تغطى رءوسها قلانس سود رسمت عليها رءوس موتى من الأمام ومن الخلف . وقامت من القيور المصورة على العربة شخوص أخرى رسمت بحيث تبدو عظاماً لا غير ، وكانت هذه الهياكل العظمية تنشد نشيداً يذكر الناس بأن الموت حق على الجميع . وسارت أمام العربة وخلفها قافلة من الخيل الهرمة الضعيفة تحمل جثث أموات(٩٧) . وهكذا نطق پيرو دى كوزيمو والموكب قائم على قدم وساق بحكمه على إيطاليا المنغمسة فى الملذات وتنبأ بما كتب لها من سوء المصير ، وكان فى حكمه وتنبؤه يردد أقوال سفنرولا .

الفصل التاسع

التمثيـــل

وترجع بعض أصول المسرحيات الإيطالية إلى هذه المقنعات والاحتفالات الساخرة . ذلك أن منظراً من التاريخ الدينى فى العادة كثيراً ما كان يمثل على إحدى عربات الموكب أو على مسارح مؤقتة فى بعض نقط من طريق الموكب. أما المصدر الأول للمسرحيات الإيطالية فهو ما كانوا يطلقون عليه لفظ « الديفورتيوتى » وهو إحدى حوادث القصص الدينى المسيحى يمثلها أعضاء إحدى نقابات الحرف ، أو ممثلون محترفون فى بعض الأحيان، ينتمون إلى هيئة تتخذ عرض هذه المناظر عملا لها . وقد وصلت إلينا نصوص بعض هذه التمثيليات من تلك الأيام ، وهى تدل على عظمة مسرحية مدهشة . فواحدة منها تروى قصة العذراء تعثر على المسيح فى بيت المقدس ، ثم تفقده مرة أخرى ، وتبحث عنه وهى ذاهبة العقل وتصيح : «أى بنى العزيز المحبوب ! أى بنى ، أين ذهبت ؟ أى بنى اللطيف ، من أى باب خرجت؟ أى بنى القدسى ، لقد كنت حزيناً كاسف البال حين غادرتنى ! خبرونى بالله أين ، أين ذهب ولدى ؟ »(٩٨) .

وفى القرن الخامس عشر نشأ فى إيطاليا عامة ، وفى فلورنس خاصة نوع من المسرحيات أرقى من هـــذه يعرف بالتمثيليات المقدسة sacra rappresentazione يمثل فى مصلى إحدى نقابات الحرف ، أو فى مطعم أحد الأديرة ، أو فى حقل من الحقول ، أو فى أحد الميادين العامة ؛ وكثيراً ما كانت المناظر المعدة لتلك التمثيليات معقدة تنم عن كثير من الذكاء

والفطنة : فكانت السماء تمثل بستر ضخمة رسمت عليها النجوم ، والسحب تمثل بأكداس من الصوف معلقة فى الهواء تتمايل مع الريح ؛ والملائكة يمثلهم غلمان مرفوعون على قوائم من المعدن مختفية فى أقمشة متماوجة هفهافة . وكانت القصة نفسها شعراً فى العادة ، تصحبها الموسيقى تعزف على الكمان أو العود ؛ وكان لورندسو ده ميديتشى ، وپلتشى Pulci من بين الشعراء الذين كتبوا ألفاظ بعض هذه التمثيليات الدينية ؛ وجاء بوليتيان فى مسرحية **أورفيو** Orfeo فكيف صيغة التمثيلية المقدسة كى تتفق مع الموضوعات الوثنية .

وكانت عناصر أخرى من الحياة الإيطالية تسهم فى هذه الأثناء فى مولد المسرحية الإيطالية . منها المسرحيات الهزلية farse التى كان يمثلها من زمن بعيد أفراد متنقلون فى مدائن العصور الوسطى ، والتى تحتوى أصول المسلاة الإيطالية . وقد برع بعض ممثليها فى ارتجال الحوار لمناظر القصص وحبكاتها . وكان هذا الحوار وسيلة محببة لإظهار قدرة الإيطاليين على الهجاء والمجون . ومن هذه المهازل ظهرت الشخصيات الهازلة الساخرة فى المسالى الشعبية واتخذت صورها وأسماءها المعروفة بها فى تلك اللغة — البنتالونى ، والأرلكينو ، والپلكينيلا أو البنكينلو (*)

وكان للكتاب الإنسانيين نصيبهم فى العوامل المعقدة التى أدت إلى نشأة المسرحية ، وذلك بإعادة نصوص المسالى الرومانية القديمة والإعداد للتمثيل . وقد كشف هؤلاء اثنتى عشرة مسرحية لپلوتوس فى عام ١٤٢٧ وكان اكتشافها حافزاً جديداً ، فمثلت فى البندقية ، وفيرارا ، ومانتوا ، وأربينو ، وسينا ، وروما مسالى پلوتوس ، وترنس ، وانتقلت التقاليد الأدبية القديمة على مر القرون لتكون من جديد المسرحيات الدنيوية . وفى عام ١٤٨٦

---

(١) Punchinello, Pu'chinella, Arlecchino, Pantalone. وتعنى كلها ضرباً من المهرجين .

عرضت مسرحية ميناكمى Menaechmi تأليف پلوتوس للمرة الأولى فى إيطاليا ، وبذلك مهد السبيل لمسرحية النهضة أتم التمهيد . ولما آذن القرن الخامس عشر بالرحيل فقدت المسرحية الدينية ما كان لها من سلطان على النظارة المتعلمين فى إيطاليا ، وأخذت الموضوعات الوثنية تحل بالتدريج المطرد الزيادة محل الموضوعات الوثنية ؛ ولما أن ألف الكتاب الإيطاليون أمثال بيينا Bibbiena ومكيڤلى ، وأريستو ، وأريتينو مسرحياتهم ، كتبوها بأسلوب پلوتوس البذىء بعيدة كل البعد عن قصص مريم والمسيح التى كانت من قبل محببة للإيطاليين ؛ وعادت إلى الظهور فى هذه المسالى الإيطالية جميع مناظر المسلاة الرومانية ، وجميع الحبكات المصطنعة السطحية التى تدور حول الأخطاء الجنسية ، أو الخطأ فى تمييز الأشخاص بعضهم من بعض ، أو فى المراتب والطبقات . وظهرت فى المسلاة كذلك جميع أنواع الشخصيات ، ومنها القوادون والعاهرات ، التى كان پلوتوس يتسرُّ بها الطبقات الدنيا من النظارة ، وخشونة الطبقات السفلى القديمة واستهتارها .

ولم يكن للمأساة مكان ما فوق مسرح النهضة رغم احتفاظ هذا العصر بمسرحيات سنكا ، ورغم استكشاف المسرحيات اليونانية من جديد . ذلك أن أهل ذلك الوقت كانوا يفضلون المتعة والتسلية على الدرس العميق ، ولهذا كانوا ينظرون شزراً إلى مسرحية سوفونسبا Sophonisb a (١٥١٥) لجيان ترسينو Gian Trissino ومسرحية روزا منداRosamunda لجيوڤنى روتشلاى . وقد مثلت هذه المسرحية الأخيرة أمام ليو العاشر فى فلورنس فى ذلك العام نفسه .

وكان من سوء حظ المسلاة الإيطالية أنها تشكلت حين كانت أخلاق الإيطاليين فى الحضيض . وإن قدرة مسرحية مثل كالندا Calanda تأليف بيينا ، ومندراجولا Mandragola لمكيڤلى ، على إشباع رغبات الطبقات

العليا من الإيطاليين ، وملاءمتها لأذواقهم حتى فى أربينو المعروفة برقة أهلها ، وإن تمثيلها أمام البابوات دون أن تثير أى احتجاج ، إن هذا وذاك ليدلاننا كيف تجتمع الحرية العقلية مع الانحطاط الخلقى . ولما قامت حركة الإصلاح المعارضة بعد انعقاد مجلس ترنت Trent (١٥٤٥ وما بعدها) ، وجه أشد النقد إلى أخلاق رجال الدين والدنيا على السواء ، ومحيت مسلاة النهضة فلم يعد لها مكان فى تسلية المجتمع الإيطالى :

الفصل العاشر

الموسيقى

لقد كان من المظاهر التى أنقذت المسلاة الإيطالية أن الرقص التمثيلى ، والمسرحيات الصامتة ، والعزف الموسيقى الجماعى كانت تعرض كلها بين الفصول ، ذلك أن الموسيقى كانت عند الإيطاليين — بعد العشق — أهم أنواع التسلية والسلوى عند كل طبقة من طبقات المجتمع فى إيطاليا . يدلنا على ذلك أن منتانى وهو مسافر فى تسكانيا عام ١٥٨١ قد « أدهشه أن يرى الفلاحين وفى أيديهم الأعواد وإلى جانبهم الرعاة ينشدون قصائد أريستو عن ظهر قلب » ؛ ولكن هذا ، كما يقول بعدئذ ، « هو الذى نستطيع أن تشاهده فى جميع أنحاء إيطاليا »[٩٩] . وقد حفظ لنا فن التصوير فى عهد النهضة ألف صورة وصورة لأشخاص يعزفون على الآلات الموسيقية من الملائكة العازفين على العود عند قدمى العذراء فى كثير من الصور التى تمثل منظر التتويج ، إلى الملائكة الصغار المنشدين فى صور ميلتسو Meizzo ، إلى نشوة الرجل العازف على القيثارة فى صورة **الحفلة الموسيقية** . وما أروع صورة الغلام — الذى يصعب علينا أن نعتقد أنه هو المصور نفسه — فى وسط صورة **أعمار الإنسان الثلاثة** لسيباستيانو دل پيومبو Sebastiano del Piombo ، كذلك تنقل لنا الكتب التى ألفت فى ذلك العصر صورة لشعب يغنى أو يعزف على الآلات الموسيقية فى منزله ، وفى أثناء عمله ، وفى الشارع ، وفى المجامع الموسيقية ، وأديرة الرجال والنساء ، والكنائس ، والمواكب ، والمقنعات ، ومواكب النصر ، والاستعراض ، والمسرحيات الدينية والدنيوية ، وفى الفقرات الغنائية ، وفيما بين الفصول فى المسرحيات ، وفى الرحلات الخلوية كالتى تصورها بوكاتشيو

فى كتابه ديكمرون Decameron ، وكان الأثرياء يحتفظون فى بيوتهم بطائفة من الآلات الموسيقية المختلفة الأنواع ، وكانوا ينظمون فيها حفلات موسيقية خاصة . أما النساء فكن ينشئن النوادى لدراسة الموسيقى ولممارستها ، وتصارى القول أن إيطاليا كانت — ولا تزال — تجن جنوناً بالموسيقى .

وازدهرت الأغانى الشعبية فى كل وقت من الأوقات ، ومن هذا المعين الذى لا ينضب كانت الموسيقى العلمية تستمد من آن إلى آن ما ينعشها ويبعث الحياة فيها . فكانت النغمات الشعبية تكيف حتى تتفق مع القصائد الغزلية المعقدة ، ومع الترانيم ، وحتى مع القطع الموسيقية التى تعزف فى الكنائس فى ساعات القداس . وفى « فلورنس » ، كما يقول تشيلينى ، « كان من عادة الأهلين أن يلتقوا فى الشوارع العامة فى ليالى الصيف » ليغنوا ويرقصوا(١٠٠) . وكان مغنو الشوارع أو الميادين — Cantori di Piazza — يوقعون ألحانهم الحزينة أو المرحة على أعواد جميلة ، كما كان السكان يجتمعون ليغنوا أناشيد المديح للعذراء عند أضرحتها المقامة فى الشوارع أو على جوانب الطرق ؛ وفى مدينة البندقية كانت أغانى العرس تصعد إلى قمر السماء من مئات قوارب النزهة ، أو ترتفع من حناجر العشاق الذين يتغزلون فى حبيباتهم فى ظلمات الليل على ضفاف القنوات الملتوية . ويكاد كل إيطالى فى ذلك الوقت يستطيع الغناء ، كما يكاد كل إيطالى يستطيع التغنى بعبارات بسيطة متوافقة . وقد وصلتنا مئات من هذه الأغانى الشعبية المسماة بذلك الاسم الجميل فروتولى Frottole أى الفاكهة الصغيرة ؛ وهى فى العادة قصيدة غزلية ، أهم أصواتها السپران (أعلى الأصوات) وإلى جانبه العران ، والرخيم ، والصور(*) . وبينما كان الصوت الرخيم فى القرون الخالية هو المسيطر على النغم ولذلك وصف به ، فقد أصبحت للسپران — أعلى الأصوات — السيطرة عليه فى القرن الخامس عشر ، وقد سمى بهذا

(*) أصوات موسيقية مختلفة .

الاسم Soprano لأن علاماته الموسيقية كانت تكتب فوق سائر العلامات ؛ ولم يكن هذا الجزء من الغناء فى حاجة إلى صوت النساء ، فقد كان كثيراً ما يغنيه غلام أو كان هو الصوت النشاز falsetto من رجل كهل (ولم يظهر الغلمان المخصيون بين المنشدين لدى البابوات قبل عام ١٥٦٢)[١٠١] .

وكان قدر كبير من العلم بالموسيقى يطلب إلى أفراد الطبقة المتعلمة ، فكان كستجليونى مثلا يتطلب إلى رسوله أو رجله المهذب أن يكون من هواة الموسيقى وأن يبرع فيها إلى حد ما لأنها « لا تجعل عقول الرجال حلوة فحسب ، بل إنها فى كثير من الأحيان تبذل الوحوش إلى حيوانات مستأنسة أليفة »[١٠٢] . وكان ينتظر من كل شخص مثقف أن يقرأ الموسيقى البسيطة بمجرد النظر إليها ، وأن يعزف على آلة ما وهو يغنى ، وأن يشترك فى أية حفلة موسيقية دون سابق استعداد[١٠٣] . وكان الأهالى فى بعض الأحيان يقيمون حفلات تجمع بين الغناء ، والرقص ، والعزف على الآلات الموسيقية . وكانت الجامعات بعد عام ١٤٠٠ تقدم للطلاب برامج موسيقية وتمنح فيها درجات علمية ؛ وكان فى إيطاليا مئات من المجامع الموسيقية ؛ وأسس فتورينو دا فلترى حوالى عام ١٤٢٥ مدرسة لتعليم الموسيقى فى مانتوا ؛ ولفظ كنسيرفتورى Conservatory الذى يطلق على المعاهد الموسيقية فى هذه الأيام يرجع فى الأصل إلى لفظ كنسيرفتورى (Conservatori) أى الملاجئ ، لأن الملاجئ فى نابلى كانت تتخذ أيضاً مدارس لتعليم الموسيقى[١٠٤] . وكان مما ساعد على انتشار الموسيقى غير ما سبق استخدام فن الطباعة فى طبع العلامات الموسيقية ؛ فقد حدث حوالى عام ١٤٧٦ أن طبع ألريخ هاهن Ulrich Hahn فى رومة كتاباً كاملا للصلوات بالعلامات الموسيقية المتنقلة والسطور ؛ وفى عام ١٥٠١ بدأ أتافيانو ده بيتروتشى Ottaviano Petrucci فى البندقية أعمال الطباعة التجارية للأناشيد الدينية » والفاكهة الصغيرة » .

وفى بلاط الملك والأمراء كانت الموسيقى أبرز الفنون عدا فنون الزينة

الشخصية والأناقة . فقد كان الحاكم يختار عادة كنيسة محببة له ، ويجعل المرنمين فيها موضع عنايته ، ويتفق المال بسخاء ليجذب إليها أجمل الأصوات وأحسن الآلات من إيطاليا ، وفرنسا ، وبرغندية ، فكان يدرب المغنين الجدد منذ طفولتهم كما فعل فيدريجو فى أربينو ، وكان ينتظر من أفراد المرنمين أن يقيموا للدولة حفلات غنائية ولبلاطه أعياداً من حين إلى حين . وقد ظل جويوم دوفاى Guillaume Dufay من أهل برغندية يشرف على الموسيقى فى قصور آل مالاتستا فى ريمينى وپيزارو وفى معبد البابا فى رومة نحو ربع قرن (١٤١٩ — ١٤٤٤) . ونظم جالياتسو ماريا اسفوردسا Galeazzo Maria Sforzo حوالى عام ١٤٦٠ جماعتين من المرنمين الدينيين ، وجاء إليهم من فرنسا بچوسكان دبريه Josquin Deprès الذى كان وقتئذ أشهر المؤلفين جميعاً فى أوربا الغربية . ولما احتفى لودڤيكو اسفوردسا بليوناردو فى ميلان كان احتفاؤه به بوصفه موسيقياً ؛ ومما هو جدير بالملاحظة أن ليوناردو اصطحب معه فى سفره من فلورنس إلى ميلان أطلانطى مجليورُتى Atlante Migliorotti وهو موسيقى ذائع الصيت وصانع آلات موسيقية . وأشهر من أطلانطى هذا فى صناعة القيثارة ، والعود ، والأرغن ، والبيان البدائى ، لورندسو جوسناسكو Lorenzo Gusnasco من أهل پاڤيا الذى اتخذ ميلان كغيرها من المدن موطناً له . وكان بلاط لودڤيكو يموج بالمغنين نذكر منهم نارتشسو Narcisso وتبستاجرسا Testagrossa وكورديير Cordier من أهل فلاندرز ، وكوستوفورو رومانو Cristoforo Romano الذى أحبته بيتريس حباً طاهراً عفيفا . وكان بدرو ماريا Pedro Maria الأسپانى يقود الحفلات الموسيقية فى القصر وحفلات الجماهير ، وأنشأ فرنكشينو جافورى Franchino Gaffuri مدرسة خاصة ذائعة الصيت فى ميلان واشتغل فيها بتعليم الموسيقى . وكانت إزبلا دست مرلعة أشد الولع بالموسيقى ؛ واتخذتها أهم موضوع لزخرفة حجرتها الداخلية الخاصة ،

وكانت هى نفسها تعزف على عدة آلات . ولما أن أمرت بإحضار بيان بدائى من لورندسو جوسناسكو اشترطت أن تستجيب لوحة المفاتيح للمس الخفيف ، « لأن يديها رقيقتان إلى حد لا تستطيع معه أن تجيد العزف إذا كانت المفاتيح جامدة »(١٠٥) . وكان يعيش فى بلاطها أشهر عازف على العودة فى زمانه ، وهو ماركتوكارا Marchctto Cara ، كما كان يعيش فيه بارتوليو ترميبو نتشينو Bartolomeo Tromboncino الذى ألف أغانى غزلية بلغ من روعتها وإعجاب الناس بها وبه أنه حين قتل زوجته الخائنة ، لم يوقع عليه عقاب ما ومرت المسألة كأنها خلاف لا يلبث أن يزول .

وآخر ما نذكره من هذا القبيل أن الموسيقى كانت تتردد أصداؤها فى الكتدرائيات والكنائس وفى أديرة الرجال والنساء ؛ وكانت الراهبات فى البندقية ، وبولونيا ، ونابلى ، وميلان ينشدن فى صلوات المساء ترانيم يبلغ من تأثيرها أن الجموع كانت تهرع من كافة الأنحاء لسماعها . وقد نظم سكستس الرابع جوقة المرنمين فى معبد سستينى ، وأضاف يوليوس الثانى إلى المرنمين فى كنيسة القديس بطرس جوقة خاصة منهم تدرب المغنين وتعدهم للانضمام لمرنمى معبد سستينى . وكان هذا ذروة الموسيقى فى العالم اللاتينى فى عهد النهضة . وأقبل على هذه الجماعة أعظم المغنين من جميع البلاد التى تدين بالمذهب الكاثوليكى الرومانى . وكان الغناء البسيط لا يزال هو الذى يفرضه القانون على الموسيقى الكنسية ، ولكن النمط الجديد Ars nova الفرنسى — وهو فن معتمد معارض له — كان يتسلل إلى جماعات المرنمين فى الكنائس الرومانية ويمهد السبيل لپاليسترينا Palestrina وڤيكتوريا . وكان الاعتقاد السائد فى وقت من الأوقات أن ليس من الكرامة أن يصحب الترنيم فى الكنيسة من الآلات الموسيقية إلا الأرغن ، ولكن عدداً من الآلات المختلفة أدخل إلى الكنائس فى القرن السادس عشر لكى تخلع على الموسيقى الكنسية بعض الروعة والجمال اللذين تمتاز بهما الموسيقى غير الدينية . وظل الأستاذ الفلمنكى أدريان

ولا إيرت Adrian Willaert من أهـــل بروج Bruges يرأس فرقة المرنمين فى كنيسة القديس مرقص بالبندقية خمسة وثلاثين عاماً درب أفرادها فيها تدريباً حسدتهم عليه رومة . وفى فلونس نظم أنطوتيو اسكوارتشيا بولى مدرسة موسيقية كان لورندسو عضواً فيها . وظل أنطونيو جيلا كاملا يسيطر على فرقة المرنمين فى الكتدرائية العظيمة تردد النغمات التى أسكتت صوت كل شك فلسفى . يدلنا على ذلك أن ليون باتستا ألبرتى Leon Battista Alberti كان من المتشككين حتى إذا غنت الفرقة صدق وآمن وقال :

« إن جميع أنواع الغناء الأخرى تمل بالتكرار ، أما الموسيقى الدينية وحدها فلا تمل . ولست أعلم مبلغ تأثر غيرى بهذه النغمات ، أما أنا فإن هذه الترانيم والمزامير التى أستمع إليها فى الكنيسة تحدث فىّ ذلك الأثر الذى وضعت من أجله ، فتهدئ من جميع اضطراباتى النفسية ، وتبعث فىّ شيئاً من الفتور الذى تعجز الألفاظ عن وضعه ، وتملأ قلبى إجلالا للخالق جل وعلا . وأى قلب قد بلغ من القسوة درجة لا يلين معها إذا سمع ذلك الارتفاع والانخفاض المتزن المتناسق فى الأصوات الكاملة الحقة بتلك النغمات العذبة اللينة ؟ وأؤكد لكم أنى ما استمعت فقط . . . إلى اللفظين اليونانيين **كيرى إليسون** (ارحمنا يارب) اللذين يدعوان الله إلى أن يقينا شر بؤسنا البشرى إلا انهمر الدمع من عينى . . وفى تلك اللحظة أفكر كذلك فى مبلغ ما للموسيقى من قدرة على تهدئتنا والترفيه عنا »(١٠٦) .

بيد أن الموسيقى ، رغم هذا الانتشار الواسع ، كانت هى الفن الوحيد الذى تأخرت فيه إيطاليا عن فرنسا فى الجزء الأكبر من عهد النهضة . ذلك أن إيطاليا قد أثر فيها انتقال البابوات إلى أفنيون فحرمها من الموارد المالية البابوية ، ولم يكن بلاط الأمراء المستبدين فى القرن الرابع عشر قد بلغ درجة كبيرة من النضوج الثقافى ، ومن أجل هذا كان يعوزها المال والروح اللذان لا غنى عنهما للدرجات العليا من الموسيقى . نعم إنها أخرجت أغانى

غزلية جميلة (يسمونها مدرجال Madrigal وهى كلمة لا يعرف اشتقاقها على وجه التحقيق) ، ولكن هذه الأغانى التى صيغت على غرار أغانى شعراء الفروسية الغزلين البروڤنساليين كانت تلحن تلحيناً جامداً منتظماً متعدد النغمات فلم تلبث أن قضى عليها جمودها .

وكان فخر الموسيقى فى القرن الرابع عشر فى إيطاليا هو فرانتشيسكو لاندينى Francesco Landini ، العازف على الأرغن ولسان لورندسو فى فلورنس . وقد فقد هذا الفنان بصره منذ طفولته ، ولكنه أصبح رغم ذلك أظرف الموسيقيين وأحبهم إلى الشعب فى زمنه ، وقد برع فى العزف على الأرغن ، والعود ، وفى تأليف الأغانى ، وقول الشعر ، وفى الفلسفة . ولكن هذا الرجل نفسه أخذ الفن أولا عن فرنسا ، فقد طبق فى قطعه الموسيقية الدنيوية التى ألفها ، والبالغ عددها مائتى قطعة ، الفن الجديد الذى استهوى فرنسا قبل تلك الأيام بجيل من الزمان . وكان هذا « الفن الجديد » جديداً جدة مزدوجة : فقد قبل الإيقاع الثنائى كما قبل التوقيت الثلاثى الذى كانت تتطلبه من قبل موسيقى الكنائس ، وابتكرت له علامات موسيقية كثيرة التعقيد والمرونة . ووجه البابا يوحنا الثانى والعشرون الذى كان يصب صواعقه فى جميع الاتجاهات ، وجه هذا البابا إحدى تلك الصواعق على الفن الجديد ورماه بأنه خيال ووهم ومنحط ، وكان لتحريمه إياه بعض الأثر فى الحيلولة دون تقدم الموسيقى فى إيطاليا . على أن يوحنا الثانى والعشرين لم يكن مخلداً ، وإن كان قد بدا للناس فى بعض الأوقات أن هذا قد يكون ؛ فلما قضى نحبه فى سن التسعين (١٣٣٤) ، انتصر الفن الجديد فى موسيقى فرنسا ، وأعقب هذا انتصاره أيضاً فى إيطاليا .

وكان المغنون والمؤلفون الفرنسيون والفلمنكيون يؤلفون فرق المرنمين البابوية فى أڤنيون . فلما أن عادت البابوية إلى رومة جاءت معها بعدد كبير من المؤلفين والمغنين الفرنسيين ، والفلمنكيين ، والهولنديين ، وظل هؤلاء

الموسيقيون الأجانب وخلفاؤهم قرناً من الزمان المسيطرين على الموسيقى الإيطالية : وظل المغنون فى الفرق البابوية حتى زمن سكستس الرابع يفدون إلى إيطاليا من وراء جبال الألب ، كذلك سيطرت الأصوات الأجنبية على موسيقى البلاط فى القرن الخامس عشر . من ذلك أنه لما مات اسكوارتشيالونى Squarcialuni (حوالى عام ١٤٧٥) اختار لورندسو رجلا هولنديا هو هنريخ اسحق Henrich Ysaac ليخلفه فى العزف على الأرغن بكتدرائية فلورنس . وكان هنريخ هو الذى وضع الألحان الموسيقية لبعض أغانى المساخر ، ولبعض أغانى بولتيان ، وهو الذى علم الرجل الذى أصبح فيما بعد ليو العاشر أن يحب الأغانى الفرنسية — بل أن يؤلف بعضها[١٠٧] . وظلت الأغانى الفرنسية وقتاً ما تغنى فى إيطاليا ، كما كانت قصائد شعراء الفروسية الغزولين تغنى فيها وقتاً ما .

وأثمر غزو الموسيقيين الفرنسيين فى إيطاليا ، وهو الذى سبق غزو الجيوش الفرنسية إياها بقرن من الزمان ، أثمر حوالى عام ١٥٢٠ انقلاباً تاماً فى الموسيقى الإيطالية . ذلك أن أولئك الرجال القادمين من الشمال — والإيطاليين الذين دربوا على أيديهم — قد انغمروا فى فيض الفن الجرىء واستخدموه فى تلحين الشعر الغنائى الإيطالى . وقد وجد هؤلاء عند پترارك ، وأريستو ، وستادسارو ، وبمبو — كما وجدوا بعدئذ فى تاسو وجوارينى — شعراً مطرباً يتحرق شوقاً للموسيقى . ألم يكن الشعر فى الواقع يتطلب على الدوام أن يغنى إذا لم يكن يتطلب أن يغنى ؟ وكانت مقطوعات پترارك قد أغوت من قبل الموسيقيين ، أما الآن فقد لحن كل بيت منها ، ولحن بعض مقطوعاتها اثنتى عشرة مرة أو أكثر ، حتى لقد أصبح پترارك أكثر من لُحِّن له من الشعراء فى الأدب العالمى . ولقد كانت هناك أغان صغيرة لا يعرف مؤلفوها ، ولكنها تعبر عن عواطف ساذجة ذات حيوية تمس شغاف كل قلب ، وتنادى أوتار كل آلة . انظر مثلا إلى هذه الأغنية :

أبصرت فتيات حساناً يتفيأن ظلال أشجار الصفيف ،
ينسجن تيجاناً براقة وهن ينشدن أغانى الحب بصوت خفيض ،
وتستعير كل واحدة منهن من أختها أوراق الأشجار وأزهارها ؛
وفى خلال هذه الأخوة العذبة حولت
أجملهن عينيها الناعستين نحوى وهمست قائلة : « خذ ! »
ووقفت مشدوها حائرا فى الحب لم أنبس ببنت شفة ،
لكنها قرأت ما تنطوى عليه جوانحى وناولتنى تاجها الجميل ؛
فأصبحت من أجل ذلك خاذمها حتى الممات(١٠٨) .

وطبق المؤلفون على هذه الأشعار الموسيقى الدينية الكاملة المعقدة الكثيرة الأنغام ذات الأربعة الأصوات — التى يغنيها أربعة أو ثمانية — المتساوية القيمة التى تخضع فيها ثلاثة أصوات لصوت واحد . وجميع هذه النغمات المعقدة الدقيقة المتسلسلة تجمع الأصوات الأربعة المستقلة فى نغم متوافق متآلف . . وهكذا نشأت أغنية الحب فى القرن السادس عشر فكانت من أبدع أزاهير الفن الإيطالى ، وبينما كانت الموسيقى فى أيام دانتى خادمة للشعر ، أضحت الآن بعد أن اكتمل نماؤها شريكة له على قدم المساواة ، لا تخفى فيها الألفاظ ، ولا تختفى فيها العواطف بل تجمع بين هذه وتلك فى ألحان تزيد من قدرتها على استثارة النفس ، فى الوقت الذى تبعث بمهارتها الفنية أسباب البهجة فى عقول المتعلمين .

ووجه المؤلفون العظام فى إيطاليا أثناء القرن التاسع عشر ، بما فيهم پاليسترينا نفسه ، وجهوا كلهم تقريباً فنهم من آن إلى آن إلى القصائد الغزلية . ويتنازع فيليب ڤيرديلو Philippe Verdelot ، وهو رجل فرنسى عاش فى إيطاليا ، وقسطندسا فيستا Qoatanza Festa الإيطالى الموطن ، شرف الأسبقية فى تنمية هذه الصور الجديدة من صور الشعر بين عامى ١٥٢٠ و ١٥٣٠ . ثم جاء بعدهم بزمن قليل أركادلت Arcadelt وهو رجل فلمنكى

كان يعيش فى رومة ، وذكره ربليه فى كتاباته(١٠٩) . وفى البندقية أعنى أدريان ولايرت Adrian Willaert من واجباته بوصفه رئيس فرقة المرنمين فى كنيسة سان ماركو لكى يؤلف أجمل قصائد الغزل فى أيامه .

وكانت القصيدة الغزلية تغنى عادة دون أن يصحبها عزف موسيقى على الآلات . نعم إن الآلات الموسيقية كان يخطئها الحصر ، ولكن ما من واحدة منها ، سوى الأرغن وحده ، كانت تجرؤ على أن تنافس الصوت الآدمى . ولقد نشأت موسيقى الآلات نشأة بطيئة فى أوائل القرن السادس عشر ، وكانت نشأتها من صيغ موسيقية وضعت أولا للرقص أو الغناء الجماعى ؛ وهكذا نشأ البوان والسلطاريل والسرنيد(*) نشأة تدريجية من الرقص المصاحب للغناء مع الآلات مفردة أو مجمعة ، وأضحت موسيقى الغزل التى تعزف دون غناء هى الكانزونى التى نشأت منها السوناته بعد زمن طويل(١٠٠١) ، ومن ثم كانت هى منشأ السمفونية .

وكان الأرغن فى القرن الرابع عشر قد وصل فى تطوره ورقيه الدرجة التى هو عليها الآن تقريباً ، فقد ظهرت لوحته الدواسة فى ألمانيا والبلاد الوطيئة فى ذلك العهد ، وسرعان ما أدخلت فى فرنسا وأسبانيا ، أما إيطاليا فقد تأخرت فى قبولها حتى القرن السادس عشر . وكانت الكثرة الغالبة من الأراغن قد أصبح لها قبل ذلك الوقت لوحتان أو ثلاث لوحات من المفاتيح وعدد مختلف من الوقفات والأجهزة التى يمكن بها استخدام عدة مفاتيح فى وقت واحد . وكانت الأراغن الكبرى فى الكنائس تحفاً فنية فى حد ذاتها يقوم الأساتذة العظام بتصميمها ، وحفرها ، ونقشها . كذلك سرى حب الجمال فى الشكل إلى غير الأرغن من الآلات الموسيقية ، فالعود مثلا — وهو آلة البيت المحببة — كان يصنع من الخشب والعاج ، ويتخذ شكل الكمثرى ، وتخرق فيه ثقوب الصوت فى نظام جميل . وكانت لوحة الأصابع فيه تقسم بنقوش من الفضة أو الشبة ، وتنتهى بصندوق للأوتاد يصنع زاوية

---

(١) كلها مضروب من الرقص وموسيقاه .

حادة مع عنقه . وكانت فتاة جميلة تجذب أوتار العود الذى تحنو عليه فى حجرها فتتكون منه ومنها صورة جميلة يهوى إليها قلب كل إيطالى حساس وكان الكثير من الآلات الموسيقية التى يعزف عليها بالأصابع هى الأخرى محببة جميلة .

أما الذين يفضلون العزف بالوتر على العزف بالأصابيع فكان لهم أنواع مختلفة من الكمان الذى يمسك على الذراع والذى يتكئ على الساق . وقد تطور النوع الثانى حتى أصبح هو الكمان الجهير وأصبح الأول فى عام ١٥٤٠ هو الكمان الصغير . وكانت آلات النفخ أقل انتشاراً من الآلات الوترية ، ذلك أن عصر النهضة كان يبغض الموسيقى التى تحدث بانتفاخ الخدود كما كان يبغضها ألقبيادس اليونانى ؛ ومع هذا فقد وجد الناى ، والفيف ، والقربة ، والبوق ، والقرن ، والصافرة ، والشون ، والمزمار . وأضافت آلات الطرق ـ الطبلة ، والدف ، والصنوج ، والطنبور والصنوج الصغيرة التى تستعملها الراقصات ـ أضافت هذه الآلات ضجيجها إلى العازفين والسامعين . وكانت جميع الآلات الموسيقية فى عصر النهضة شرقية الأصل ما عدا لوحة المفاتيح التى أضيفت إلى غير الأرغن من الآلات للدق على الأوتار أو جذبها بطريقة غير مباشرة . وأقدم هذه الآلات ذات لوحات المفاتيح هو البيان البدائى المسمى كلافيكور Clavirchord (ومعنى كلافس هو المفتاح) ؛ وقد ظهرت هذه الآلة فى القرن الثانى عشر ، وكان للعاطفة شأن فى بعثها من جديد فى أيام باخ Bach ؛ وكانت أوتارها تدق بملامس نحاسية صغيرة تحركها المفاتيح . ثم حلت محلها فى القرن السادس عشر آلة الكلافيتشمبالو Clavicembalo التى كانت أوتارها تجذب بريشة أو قطعة من الجلد متصلة برافعات خشبية ترتفع إذا ما ضغط على المفاتيح . وقد اتخذت هذه الآلة فى إنجلترا وإيطاليا صورتين مختلفتين سميت فى الأولى ڤيرجنال Viriginal وفى الثانية الاسپينت Spinet .

وكانت هذه الآلات كلها حتى ذلك الوقت أقل شأناً من الصوت

الآدمى ، ولذلك كان جميع الفنانين الفارهين فى عصر النهضة مغنين . لكننا نسمع فى وقت تعميد ألفنسو صاحب فيرارا فى عام ١٤٧٦ عن حفل فى قصر اسكفانيو Schifanio كانت فيه حفلة موسيقية اشترك فيها مائة من النافخين فى الأبواق والزمارين والضاربين على الطنبور. وفى القرن السادس استخدم مجلس السيادة فى فلورنس فرقة منتظمة من الموسيقيين كان منها تشليني. وكانت عدة آلات يعزف عليها فى ذلك العهد مجتمعة ، ولكن هذا النوع من الحفلات قد اختصت به القلة الأرستقراطية . أما العزف المفرد على الآلات فقد كان شائعاً إلى حد يشبه الجنون ، فلم يكن الناس يؤمون الكنائس للصلاة على الدوام ، بل كانوا يؤمونها فى كثير من الأحيان ليستمعوا إلى عازف شهير على الأرغن مثل اسكوارتشيا لوبى أو أوركانيا Orcagna . ولما أن عزف پيترو بونو Pietro Bono على العود فى بلاط يورسو بفيرارا طارت أرواح المستمعين ، على حد قولهم ، من هذه الدار إلى الدار الآخرة(١١٠) . وكان كبار العازفين من أسعد الناس وأحبهم إلى القلوب فى تلك الأيام ، ولم يكونوا يطلبون لأنفسهم حسن السمعة ممن يخلفونهم بل كانوا يحصلون على كل ما يطمعون فيه من الشهرة قبل مماتهم .

أما النظريات فى الموسيقى فقد تأخرت عن الأعمال بنحو جيل : ذلك أن العازفين كانوا يجددون ، أما الأساتذة فكانوا يرفضون ، ثم يجادلون ، ثم يوافقون . وفى هذه الأثناء صيغت مبادى الكرصته(*) ، والنغمات المتعددة المشتركة ، والتسلسل الموسيقى ، لكى يسهل تعليم الموسيقى وانتقالها . لهذا لم تكن أعظم السمات الموسيقية فى عصر النهضة هى النظريات ، بل لم تكن التقدم الفنى للموسيقى ، بل كانت استحالتها من الصبغة الدينية إلى الصبغة الدنيوية ، ولهذا لم تعد الموسيقى الدينية فى القرن السادس عشر هى التى تقدمت ، وأجريت عليها التجارب ، بل كان الذى تقدم وجرب هو موسيقى القصائد

(*) كثرت الأصوات وهو لفظ منحوت Polyphone . (المترجم)

الغزلية وموسيقى البلاط . ذلك أن الموسيقى الإيطالية فى القرن السادس عشر خرجت من سيطرة الكنيسة كما خرج الأدب والفلسفة من هذه السيطرة ، وانعكست عليها السمات الوثنية لفن النهضة وما كان فيها من انحلال خلقى ، وأخذت الموسيقى تبحث عن إلهام لها فى شعر الحب وانتهى النزاع القديم بين الدين والجنس إلى وقت ما بانتصار الحب . وذلك انقضى عصر العذراء وبدأ سلطان المرأة ، ولكن الموسيقى فى كليهما كانت خادمة الملكة والمؤتمرة بأمرها .

الفصل الحادى عشر

نظرة شاملة

تُرى هل كانت أخلاق إيطاليا فى عصر النهضة أسوأ من أخلاق غيرها من البلاد أو العصور؟ إن المقارنة لمن الأمور العسيرة ، لأن الشواهد كلها محض اختيار . فعصر ألقبيادس فى أثينة مثلا يكشف عن كثير مما فى عصر النهضة من فساد فى العلاقات الجنسية والمماحكات السياسية ، ففيه أيضا كان يحدث الإجهاض على نطاق واسع ، وفيه اتسع المجال للعاهرات المثقفات المتأدبات ؛ وفيه أيضاً تحررت العقول والغرائز فى وقت واحد ، وفيه استبق السوفسطائيون أمثال شرازيبولوس فى جمهورية أفلاطون مكيفلى إلى مهاجمة الفضائل ووصفوها بأنها من سمات الضعف ، ولربما كان العنف الفردى فى بلاد اليونان القديمة أقل منه فى إيطاليا على عهد النهضة ، كما كان الفساد فى الدين والسياسة عند اليونان أقل بعض الشىء منه فى إيطاليا (ونقول ربما عامدين لأنا فى هذه المسائل إنما نعتمد على ما ينطبع فى عقولنا لا على ما نجزم به واثقين) . وكذلك الحال فى أيام الرومان الأقدمين ؛ ففى قرن كامل فى تاريخ الرومان — من عهد قيصر إلى عهد نيرون — نجد الفساد فى الحكم ، والانحلال فى عقدة الزواج أكثر منهما فى عهد النهضة ؛ ولكن كثيراً من الفضائل الرواقية قد بقى فى أخلاق الرومان حتى فى ذلك العصر الفاسد نفسه ، فقد كان قيصر ، رغم ما يتصف به من قدرة على الجمع بين الضدين فى الرشوة والحب ، أعظم القواد فى أمة كل رجالها قواد عظام .

وكانت النزعة الانفرادية فى عصر النهضة ناحية أخرى من نواحى حيويتها ونشاطها ، ولكنها لا تضارع فى الناحيتين الخلقية والسياسية ما كانت عليه النزعة الاستقلالية فى مدن العصور الوسطى ، وأكبر الظن أن الخداع والغدر

والجريمة لم تكن فى فرنسا ، وألمانيا وإنجلترا فى القرنين الرابع عشر والخامس عشر أقل مما كانت فى إيطاليا ؛ ولكن هذه الأقطار قد أوتيت من الحكمة والحصافة ما حال بينها وبين إخراج رجل مثل مكيڤلى لينشر مبادئ فنها السياسى ويعرضه على الأنظار . لقد كانت العادات والآداب العامة لا المبادئ الأخلاقية أكثر فظاظة وغلظة فى شمال جبال الألب منها فى جنوبها ، إذا استثنينا من هذا الحكم طبقة صغيرة فى فرنسا — يمثلها الفارس الشهم بايار Bayard وجاستن ده فوا Gaston de Foix — كانت لا تزال تحتفظ بالناحية الطيبة من نظام الفروسية . لكن الفرنسيين إذا ما أتيحت لهم الفرص التى أتيحت للإيطاليين لم يكونوا أقل منهم انهماكاً فى الزنا ؛ وما على القارئ إلا أن يتذكر كيف انتشر داء الزهرى بينهم انتشاراً سريعاً ، أو أن يلاحظ الاختلاط الجنسى التى تصفه لنا الأساطير الشعرية ، أو يحصى العاشقات الأربع والعشرين اللاتى كان يستمتع بهن فليب دوق برغندية ، ويتذكر أنييه سورل Agnel Sorels وديان ده بواتييه Dianes de Poitiers من حاشية ملوك فرنسا ؛ أو فليقرأ ما كتبه فى ذلك برانتوم Brantome ..

وإذا كانت ألمانيا وإنجلترا فى القرنين الرابع عشر والخامس عشر لم تضارعا إيطاليا فى الفساد الخلقى فقد كان منشأ ذلك فقر هذين البلدين . ولهذا فإن من جاءوا منهما إلى إيطاليا قد ذهلوا ممـــا شاهدوا فى الحياة الإيطالية من انحلال فى الأخلاق . ولما زار لوثر إيطاليا فى عام ١٥١١ قال من فوره إنه « إذا كان هناك جحيم ، فإن رومة قد بنيت من فوقه ؛ وهذا ما سمعته فى رومة نفسها »[١١١] . وليس منا من لم يعرف الحكم الصارم الذى نطق به فى ذهوله روچر آسكم Roger Ascham العالم الإنجليزى الذى زار إيطاليا حوالى عام ١٥٥٠ :

« لقد كنت يوماً ما فى إيطاليا نفسها ، ولكنى أحمد الله إذ لم أقم فيها إلا تسعة أيام ؛ ومع هذا فإنى شاهدت فى هذا الزمن القصير ، وفى مدينة

واحدة ، من الانغماس فى الذنوب والتحرر من قيود الأخلاق أكثر مما سمعته يقال فى تسعة أيام عن بلدتنا النبيلة لندن . لقد رأيت هناك أن فى مقدور المرء أن يرتكب الخطايا دون أن يتعرض للعقاب ودون أن يهتم بخطاياه أى إنسان ، وقد أوتى من الحرية فى ارتكابها بقدر ما أوتى ساكن لندن من حرية فى أن يختار دون لوم أن يلبس حذاء أو خفاً(١١٢) .

وهو يورد من الأمثال السائرة قولهم « إن الإنجليزى المتطلين هو الشيطان المجسد » .

وإنا لنعرف عن فساد إيطاليا أكثر مما نعرفه عن فساد ما وراء الألب لأنا نعرف عن الأولى أكثر مما نعرف عن الثانية ، ولأن غير رجال الدين من الإيطاليين لم يحاولوا قط أن يخفوا فسادهم ، بل إنهم فى بعض الأحيان ألفوا الكتب للدفاع عن هذا الفساد . على أننا نعود فنقول إن مكيفلى الذى ألف كتاباً من هذا النوع كان يرى أن إيطاليا « أكثر فساد من كل ما عداها من الأقطار ، ثم يليها فى ذلك الفرنسيون ثم الأسپان »(١١٣) . وكان يعجب بالألمان والسويسريين ويقول إنهم لا يزالون يتصفون بكثير من فضائل الرجولة التى كانت لأهل رومة القديمة . وفى وسعنا أن نقول بشىء من الحذر والتردد إن إيطاليا كانت أكثر من غيرها فساداً لأنها كانت أكثر ثراء ، وأضعف حكما ، وأقل خضوعا لسلطان القانون ، وإنها كانت أكثر رقيا فى ذلك التطور الذهنى الذى يؤدى فى العادة إلى التحلل من القيود الأخلاقية .

ولقد بذل الإيطاليون جهوداً مشكورة فى مقاومة ذلك الانحلال . وكانت أقل هذه الجهود ثمرة هى قواعد النفقات التى وضعت فى الدول الإيطالية كلها تقريبا والتى كانت تحرم الإسراف فى الإنفاق على الملابس المتبهرجة ، غير ما كان يتصف به الرجال والنساء من زهو وخيلاء كان أقوى من قوة القانون . وكان البابوات يندون بالفساد الخلقى ، ولكن

التيار القوى كان يجرفهم معه فى بعض الأحيان ، وكانت المحاولات التى يبذلونها لإصلاح مفاسد الكنيسة يحول دون نجاحها عدم رغبة الكهنة فى الإقلاع عن عاداتهم السيئة أو محافظتهم على مصالحهم المكتسبة . على أنهم هم أنفسهم لم يبلغوا من الفساد المبلغ الذى يصورهم به المؤرخون المغالون ، غير أنهم كانوا أكثر اهتماماً بإعادة سلطان البابوية السياسى منهم بإعادة صلاح الكنيسة الأخلاقى . وفى ذلك يقول جوتشياردينى : « إن الحبر الأعظم ليوصف بالصلاح ويمتدح إذا لم يكن أكثر شراً من غيره من الناس »(١١٤) . ولقد بذل وعاظ ذلك العصر العظام جهوداً جبارة لإصلاح ذلك الفساد ؛ ونذكر منهم على سبيل المثال القديس برناردينو السينائى ، وروبيرتو دا لتشو Roberto da Lecce ، وسان جيوڤنى دا كاپستراتوا ، وسڤنرولا . ولقد كانت عظاتهم ، وكان مستمعوهم ، جزءاً من لون ذلك العصر وطبيعته . فقد كانوا يندون بالرذيلة بأقوال مفصلة واضحة ، أذاعت بين الناس شهرتهم وجذبت إليهم القلوب ؛ وقد أقنعوا رجال الإقطاع بالتخلى عن عادة الأخذ بالثأر ، وبالعيش فى وئام وسلام ، وحملوا الحكومات على أن تطلق سراح المدينين المقلسين ، وتسمح للمنفيين بأن يعودوا إلى أوطانهم آمنين ؛ وعادوا بالآثمين الذين قست قلوبهم من الذنوب إلى ما أهملوه من الصلاة ومن مراعاة لقواعد الدين .

غير أن هؤلاء الوعاظ الأقوياء أنفسهم قد أخفقوا فيما كانوا يبتغون ؛ فقد عادت إلى الظهور تلك الغرائز التى تكونت خلال مائة ألف عام قضاها الإنسان صياداً متوحشاً ، حين خرجت من قشرة الأخلاق التى تشققت بعد أن فقدت تأييد العقيدة الدينية واحترام السلطة العليا والقانون الثابت المقرر . ولم يعد فى مقدور الكنيسة التى كانت من قبل تحكم الملوك أن تحكم أو تطهر نفسها . وكان انهيار الحرية السياسية فى دولة إثر دولة قد ثلم حدة الشعور الوطنى الذى بث روح الحرية والنبل فى حكومات مدن العصور الوسطى

المستقلة ؛ فلم نعد نرى إلا أفراداً بعد أن كنا نرى مواطنين . ووجد أولئك الأفراد أنفسهم محرومين من الاشتراك فى حكم بلادهم ، وبأيديهم ثروة ضخمة ، فاتجهوا إلى طلب اللذات ، حتى إذا دهمهم الغزو الأجنبى وجدهم فى أحضان العاهرات. وقد ظلت دول المدن قرنين من الزمان توجه قواتها ، وحذقها ، ودهاءها ، وغدرها ، بعضها نحو بعض ، حتى أصبح مستحيلا عليها أن تضم شملها للوقوف أمام عدو لها مشترك . ولما أخفق الوعاظ أمثال سفنرولا فى كل ما لجأوا إليه من وسائل لإصلاح الحال ، أخذوا يدعون الله ليصب جام غضبه على إيطاليا ، وتنبأوا بأن رومة سيحيق بها الخراب ، وأن الكنيسة ستتحطم وتتبدد(١١٥) . وملت فرنسا ، وأسپانيا ، وألمانيا إرسال الخراج لسد نفقات الحروب التى تشنها الولايات البابوية ، ولتمكين الإيطاليين من أن يحيوا حياتهم المترفة ، وأخذوا ينظرون بعين الدهشة والحسد إلى شبه الجزيرة التى فقدت إرادتها وجردت من سلطانها ، والتى تستهوى القلوب بجمالها وثرائها . وتجمعت الطيور الجارحة وأخذت تحلق فى سماء إيطاليا توشك أن تنقض عليها لتشبع منها نهمها .